الْخُطَبُ الْمِنْبَرِيَّةُ الْمُفَرَّغَةُ

تَأْلِيفُ الشَّيْخِ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ بَرْجَسٍ آلِ عَبْدِ الْكَرِيمِ

خُطْبَةُ الْحَاجَةِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٠٢].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النِّسَاءِ: ١].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا • يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الْأَحْزَابِ: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ...(١)

---

(١) انظر كتاب «خطبة الحاجة التي كان رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يعلمها أصحابه»، للعلامة الإمام المحدث الشيخ: محمد ناصر الدين الألباني - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً -.

الْخُطْبَةُ الْأُولَى:

أَهَمِّيَّةُ التَّوْحِيدِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الشِّرْكِ(١)

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - خَلَقَ الْخَلْقَ لِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَهَيَّأَهُمْ لِخَطْبٍ جَسِيمٍ، خَلَقَهُمْ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا لِيَسْتَكْثِرَ بِهِمْ مِنْ

قِلَّةٍ، وَلَا لِيَسْتَقْوِيَ بِهِمْ مِنْ ضَعْفٍ؛ وَإِنَّمَا لِيَعْبُدُوهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وَلِيُوَحِّدُوهُ، وَلِيُفْرِدُوهُ بِكُلِّ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ وَيَرْضَاهَا - قَوْلًا، وَفِعْلًا، وَاعْتِقَادًا -.

قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ • مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ • إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذَّارِيَاتِ: ٥٦-٥٨].

وَلِأَهَمِّيَّةِ هَذَا الْأَمْرِ وَعِظَمِهِ عِنْدَهُ - عَزَّ وَجَلَّ -؛ أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ فِيهِ، كَمَا قَالَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النَّحْلِ: ٣٦].

وَلَقَدْ كَانَ النَّاسُ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ - أَوَّلَ الْأَمْرِ عَلَى الْمُعْتَقَدِ الصَّحِيحِ وَالْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ: لَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، ثُمَّ دَبَّ إِلَيْهِمْ دَاءُ الْإِشْرَاكِ بِهِ؛ فَأَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ؛ لِمُحَارَبَةِ هَذَا الشِّرْكِ، وَلِتَصْحِيحِ عَقَائِدِ النَّاسِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَيْ: فِي الْمُعْتَقَدِ.. ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٢١٣]: مُبَشِّرِينَ مَنِ الْتَزَمَ التَّوْحِيدَ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، مُنْذِرِينَ مَنِ انْحَرَفَ عَنْ هَذَا التَّوْحِيدِ بِنَارٍ ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ

عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيمِ: ٦].

يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: لَمَّا مَاتَ آدَمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَقِيَ بَنُوهُ عَلَى عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ عَشَرَةَ قُرُونٍ، ثُمَّ دَبَّ إِلَيْهِمُ الشِّرْكُ؛ فَأَرْسَلَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - إِلَيْهِمْ نُوحًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ -؛ لِيُصَحِّحَ مُعْتَقَدَهُمْ، وَلِيُزِيلَ الشُّبُهَاتِ الَّتِي لَصِقَتْ بِأَذْهَانِهِمْ فِي قَضِيَّةِ إِفْرَادِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِالْعِبَادَةِ؛ فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا قَصَّ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي كِتَابِهِ، ثُمَّ بَعْدَ حِينٍ فَشَا الشِّرْكُ وَانْتَشَرَ كَمَا كَانَ سَابِقًا؛ فَأَرْسَلَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - رُسُلًا لِلْقَضَاءِ عَلَيْهِ.

مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِمَامُ الْحُنَفَاءِ، وَحِينَمَا أَرْسَلَهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِدَعْوَةِ التَّوْحِيدِ لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مُسْلِمٌ، وَدَعَا إِلَى التَّوْحِيدِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَبَيَّنَهُ وَقَرَّرَهُ، وَمُنْذُ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى قِيَامِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالتَّوْحِيدُ بَاقٍ لَمْ يَنْقَطِعْ؛ كَمَا قَالَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أَيْ: كَلِمَةَ الْإِخْلَاصِ.. ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزُّخْرُفِ: ٢٨] أَيْ: فِي عَقِبِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -؛

فَكَانَ بَنُوهُ وَبَنُوهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَيُفْرِدُونَهُ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ.

---

(١) الخطبة الصوتية معروفة بعنوان: «اتقوا الله»، وقد أشار عليَّ الشيخ: عبد الحق التركماني - وفقه الله - بأن أغيِّر اسمها إلى ما أثبتُّه؛ لأنه يعكس مضمون الخطبة جَيِّدًا، بخلاف ذاك العنوان.

إِلَى أَنْ جَاءَ آخِرُ الزَّمَانِ، فَخَرَجَ فِيهِمْ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَجَلَبَ الْأَصْنَامَ إِلَى الْعَرَبِ. وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ أَنَّهُ كَانَ صَالِحًا عَابِدًا؛ فَعَظَّمَهُ النَّاسُ، وَاغْتَرُّوا بِهِ، فَرَحَلَ إِلَى الشَّامِ، فَوَجَدَ أَهْلَهَا يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَقَدِمَ مَعَهُ بِـ(هُبَلَ)، وَوَضَعَهُ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ، وَدَعَا قُرَيْشًا إِلَى عِبَادَتِهِ، فَاسْتَجَابَتْ لَهُ، ثُمَّ اسْتَجَابَ لِقُرَيْشٍ سَائِرُ الْعَرَبِ.

فَلَمَّا فَشَا الشِّرْكُ وَانْتَشَرَ، وَعَظُمَ الْأَمْرُ وَاشْتَدَّ خَطَرُهُ؛ بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ - فِي حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، بَعَثَهُ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مِنَّةً عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَرَحْمَةً بِهِمْ، لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا

مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٦٤].

بَعَثَهُ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ؛ كَمَا قَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ • قُمْ فَأَنذِرْ • وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ • وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ • وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [الْمُدَّثِّرِ: ١-٥] أَيْ: قُمْ - يَا مُحَمَّدُ - دَاعِيًا إِلَى التَّوْحِيدِ، نَاهِيًا عَنِ الشِّرْكِ، وَكَبِّرْ رَبَّكَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وَعَظِّمْهُ بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أَيْ: اهْجُرِ الْأَصْنَامَ وَانْبِذْهَا، وَاهْجُرْ أَهْلَهَا؛ فَإِنَّهُمْ مُشْرِكُونَ يَسْتَحِقُّونَ الْمُفَاصَلَةَ وَالْمُبَايَنَةَ؛ فَكَانَ مِنْهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الْأَمْرِ، وَقَرَّرَهُ، وَبَيَّنَهُ أَوْضَحَ بَيَانٍ وَأَكْمَلَ بَيَانٍ.

ثُمَّ أَكْمَلَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِهِ الدِّينَ، وَأَتَمَّ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَيْهِ النِّعْمَةَ، وَكَانَ مِنْ إِكْمَالِ الدِّينِ لَهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنْ بَيَّنَ لَنَا كُلَّ أَمْرٍ يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ لِنَأْخُذَ الْخَيْرَ، وَنَجْتَنِبَ الشَّرَّ.

يَقُولُ أَبُو الدَّرْدَاءِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «لَقَدْ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْجَوِّ إِلَّا تَرَكَ

لَنَا مِنْهُ عِلْمًا».

وَثَبَتَ عَنْ حُذَيْفَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَعِدَ الْمِنْبَرَ، وَخَطَبَهُمْ خُطْبَةً لَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا وَبَيَّنَهُ لَهُمْ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -.

وَثَبَتَ عَنْهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ خَيْرٍ يُقَرِّبُ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ، وَمَا مِنْ شَرٍّ يُقَرِّبُ إِلَى النَّارِ إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ».

فَتُوُفِّيَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَهُوَ تَارِكٌ لَنَا عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ.

وَكَانَ مِمَّا أَخْبَرَنَا بِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَأَطْلَعَنَا عَلَيْهِ: أَنَّ الشِّرْكَ سَوْفَ يَفْشُو فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ وَيَنْتَشِرُ انْتِشَارًا عَظِيمًا؛ فَفِي (الصَّحِيحَيْنِ) أَنَّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخَلَصَةِ»، وَفِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى».

وَمِنْ هُنَا؛ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَحْذَرَ أَشَدَّ الْحَذَرِ مِنَ الْإِشْرَاكِ بِاللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وَأَنْ يَجْعَلَ نَصْبَ عَيْنَيْهِ الْخَوْفَ وَالْقَلَقَ مِنْ هَذَا الشِّرْكِ؛ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ جَرِيمَةٍ يُعْصَى اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِهَا.

وَإِنَّ مِمَّا يُعَابُ عَلَى أَكْثَرِ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ: أَنَّهُمْ أَمِنُوا وُقُوعَ أَنْفُسِهِمْ فِي الْإِشْرَاكِ بِاللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -؛ فَبَعْضُهُمْ يَظُنُّ تَوْحِيدَهُ كَامِلًا، وَهَذَا التَّوْحِيدُ سَوْفَ يَمْنَعُهُ مِنَ الْإِشْرَاكِ بِاللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -؛ فَلَا يُولِي الشِّرْكَ بِاللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - اهْتِمَامًا. وَبَعْضُهُمْ جَاهِلٌ لَا يَعْرِفُ خُطُورَةَ الْإِشْرَاكِ بِاللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

وَإِنَّ مِنَ الْأُمُورِ وَالْوَسَائِلِ الَّتِي تُولِجُ الشِّرْكَ عَلَى الْأُمَّةِ الْإِسْلَامَةِ - إِنَّ مِمَّا يُولِجُ الشِّرْكَ عَلَى الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ -: الْأَمْنَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الشِّرْكِ.

وَلِذَلِكَ؛ يَقُولُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي النِّفَاقِ: «مَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ، وَمَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ».

وَيَقُولُ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ فِي النِّفَاقِ - أَيْضًا -: «أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى

نَفْسِهِ».

وَمِنْ هُنَا؛ كَمُلَ إِيمَانُ الصَّحَابَةِ، وَتَمَّ وَعَلَا، وَارْتَفَعَ وَصَعِدَ إِلَى اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مَقْبُولًا؛ لِأَنَّهُمْ خَشُوا مِنَ الْوُقُوعِ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْخَطِيرِ، وَقَرَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّ وُقُوعَهُمْ وَوُقُوعَ أَمْثَالِهِمْ لَيْسَ بَعِيدًا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ؛ فَأَوْجَبَ لَهُمْ ذَلِكَ الْحَذَرَ وَالْخَوْفَ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ إِمَامَ الْحُنَفَاءِ، الَّذِي وَصَفَهُ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِصِفَاتٍ جَلِيلَةٍ عَظِيمَةٍ؛ فَقَالَ - عَزَّ وَجَلَّ - فِيهِ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النَّجْمِ: ٣٧]، وَجَعَلَهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِمَامًا لِلنَّاسِ، وَأَمَرَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَتَّبِعَ مِلَّتَهُ الْحَنِيفِيَّةَ، وَأَخْبَرَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنَّ إِبْرَاهِيمَ أُمَّةٌ لِوَحْدِهِ، وَهُوَ الَّذِي كَسَرَ الْأَصْنَامَ بِيَدِهِ..

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي هَذِهِ بَعْضُ فَضَائِلِهِ يَقُولُ دَاعِيًا رَبَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٣٥].

فَفِي هَذَا الدُّعَاءِ لَفْتُ نَظَرٍ لِكُلِّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ خَوْفٌ مِنَ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وَرَجَاءٌ لِمَا عِنْدَهُ مِنْ ثَوَابِ الْمُوَحِّدِينَ، فِي هَذَا الدُّعَاءِ لَفْتَةُ نَظَرٍ إِلَى هَؤُلَاءِ النَّاسِ؛ لِيَحْذَرُوا مِنَ الشِّرْكِ كُلَّ

الْحَذَرِ؛ فَإِنَّ إِمَامَ الْحُنَفَاءِ يَخْشَاهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَمَا بَالُكَ بِمَنْ دُونَهُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ؟! بَلْ مَا بَالُكَ بِمَنْ دُونَهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ، أَوْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ، أَوِ الْعُلَمَاءِ؟!!

لَا شَكَّ أَنَّ وُجُوبَ الْحَذَرِ عَلَى هَؤُلَاءِ أَوْلَى وَأَحْوَطُ.

وَلِذَلِكَ؛ يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: «وَمَنْ يَأْمَنُ الْبَلَاءَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -؟!».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، إِنَّنَا فِي هَذَا الزَّمَنِ بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى تَعَلُّمِ التَّوْحِيدِ، وَإِلَى الِاطِّلَاعِ عَلَى مَسَائِلِ الشِّرْكِ وَوَسَائِلِ الشِّرْكِ؛ لِأَنَّ الِابْتِعَادَ عَنْهُ إِنَّمَا يَكْمُنُ فِي مَعْرِفَتِهِ وَالْإِحَاطَةِ بِهِ.

وَلِذَلِكَ؛ يَقُولُ حُذَيْفَةُ: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ؛ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي».

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ

مَنْ لَا يَعْرِفِ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ يَقَعْ فِيهِ

وَفِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ تَخْرُجُ دَعَوَاتٌ وَتَجْعَرُ أَصْوَاتٌ بِعَدَمِ الِاهْتِمَامِ بِالتَّوْحِيدِ، أَوْ بِتَقْلِيلِ شَأْنِ التَّوْحِيدِ مِنْ أَنْفُسِ النَّاسِ، وَذَلِكَ عَنْ

طَرِيقِ شِعَارَاتٍ بَرَّاقَةٍ يَحْسَبُهَا الظَّمْآنُ مَاءً.

فَيَقُولُونَ: إِنَّ الزَّمَنَ زَمَنُ اعْتِنَاءٍ بِأَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ، الْمُسْلِمُونَ يُقَتَّلُونَ يَمِينًا وَشِمَالًا وَأَنْتُمْ تَهْتَمُّونَ بِمَسَائِلِ الْعَقِيدَةِ، تَهْتَمُّونَ بِمَسَائِلِ التَّوْحِيدِ، تُحَذِّرُونَ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، لَيْسَ هَذَا أَوَانَهُ؛ إِنَّمَا هُوَ أَوَانُ الْوَحْدَةِ الْكَامِلَةِ لِلْمُسْلِمِينَ عُمُومًا دُونَ التَّفْرِيقِ بَيْنَهُمْ.

وَهَذَا الْخَطَأُ - وَإِنْ كَانَ قَائِلُهُ قَدْ يَكُونُ مُرِيدًا لِلْحَقِّ - هُوَ خَطَأٌ مَحْضٌ وَبَاطِلٌ مُبِينٌ، يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَنْتَبِهُوا لَهُ، وَأَنْ يَحْذَرُوا مِنْهُ أَشَدَّ الْحَذَرِ؛ فَإِنَّ أُمُورَ التَّوْحِيدِ هِيَ أَهَمُّ الْأُمُورِ وَأَجَلُّهَا.

وَلِذَا؛ فَإِنَّ رَسُولَنَا - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مَكَثَ يَدْعُو إِلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، مِنْهَا ثَلَاثَةَ عَشْرَةَ سَنَةً فِي مَكَّةَ، مِنْهَا عَشْرُ سِنِينَ يُقَرِّرُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَيَدْعُو إِلَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَيُبَيِّنُ مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

فَفِي هَذَا تَوْجِيهٌ كَرِيمٌ إِلَى الدُّعَاةِ - تَوْجِيهٌ إِلَيْهِمْ - إِلَى أَنَّ الِاهْتِمَامَ بِالْعَقِيدَةِ أَمْرٌ مُهِمٌّ ضَرُورِيٌّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا صَلَحَتْ

عَقَائِدُهُمْ؛ أَمِنُوا الدُّخُولَ فِي جَنَّةِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مَهْمَا كَثُرَتْ ذُنُوبُهُمْ وَمَعَاصِيهِمْ.

أَمَّا إِذَا كَانَ التَّوْحِيدُ مُخْتَلًّا؛ فَإِنَّ صَاحِبَهُ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ، وَعَلَى ضَلَالٍ كَبِيرٍ مُبِينٍ.

فَالدَّاعِي إِلَى اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الَّذِي يُرِيدُ حَقًّا إِصْلَاحَ الْأُمَّةِ، وَيَقْصِدُ حَقًّا الشَّفَقَةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ - يَعْتَنِي بِتَصْحِيحِ عَقَائِدِهِمْ، وَبِسَلَامَةِ تَوْحِيدِهِمْ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يَفْعَلُ.

فَاللهَ اللهَ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ - فِي تَصْحِيحِ الْعَقَائِدِ، وَفِي مَعْرِفَةِ الشِّرْكِ وَوَسَائِلِهِ؛ لِتَحْذَرُوهُ كُلَّ الْحَذَرِ.

وَتَبْيِينُ التَّوْحِيدِ وَتَبْيِينُ الشِّرْكِ إِنَّمَا يَكُونُ بِقِرَاءَةِ كُتُبِ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ وَضَّحُوا هَذَا الْأَمْرَ، وَبَيَّنُوهُ بَيَانًا شَافِيًا كَافِيًا.

وَكَانَ عِنْدَنَا الْعَامَّةُ قَبْلَ خَمْسِينَ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ يَحْفَظُونَ - وَهُمْ لَا يَقْرَؤُونَ وَلَا يَكْتُبُونَ! - كَثِيرًا مِنْ كُتُبِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ - رَحِمَهُ اللهُ - الْمُخْتَصَرَاتِ، يَحْفَظُونَهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ؛ مِمَّا كَانَ لَهُ أَثَرٌ بَارِزٌ فِي حِفْظِ مُعْتَقَدِهِمْ، وَسَلَامَةِ

مَنَاهِجِهِمْ، وَخُلُوِّهِمْ مِنَ الْإِشْرَاكِ وَالْبِدَعِ، وَ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الْحَدِيدِ: ٢١، الْجُمُعَةِ: ٤].

فَبِالْعِلْمِ يَسْتَطِيعُ الْمُسْلِمُ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى الْجَهْلِ، وَبِالْعِلْمِ يَسْتَطِيعُ الْمُسْلِمُ أَنْ يَحْمِيَ عَقِيدَتَهُ مِنْ أَنْ تَتَدَنَّسَ بِأَوْحَالِ الشِّرْكِ وَتَتَلَطَّخَ بِأَوْحَالِ الْبِدَعِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ جُرْمًا مِنَ الْمَعَاصِي لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

فَعَلَى الْعَامَّةِ - فَضْلًا عَنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ - أَنْ يَحْفَظُوا (الْأُصُولَ الثَّلَاثَةَ) - مَثَلًا - لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ، وَأَنْ يَحْفَظُوا (كَشْفَ الشُّبُهَاتِ) لَهُ، وَ(كِتَابَ التَّوْحِيدِ) لَهُ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ الثَّلَاثَةَ كَفِيلَةٌ لِمَنْ تَعَلَّمَهَا وَفَهِمَهَا - كَفِيلَةٌ - بِأَنْ تَحْفَظَ مُعْتَقَدَهُ، وَأَنْ تَجْعَلَهُ سَالِمًا مِنَ الْإِشْرَاكِ بِاللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -.

وَالْوَصِيَّةُ بِهَذِهِ الْكُتُبِ لَا لِذَاتِهَا وَلَا لِمُؤَلِّفِهَا؛ وَإِنَّمَا لِمَا قَامَتْ عَلَيْهِ مِنَ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلِمَا قَامَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْفَهْمِ الصَّحِيحِ السَّلِيمِ لِهَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: كِتَابِ اللهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

وَلَا يَنْخَدِعَنَّ الْمُسْلِمُ بِشِعَارَاتٍ بَرَّاقَةٍ تَدْعُو إِلَى الْأُخُوَّةِ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْعَقِيدَةِ وَالتَّوْحِيدِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ لَيْسَتْ دَعْوَةَ السَّلَفِ - رَحْمَةُ

اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ -، وَلَوْ أَنَّ السَّلَفَ دَعَوْا إِلَى اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِمِثْلِ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ الْعَامَّةِ - الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ عُمُومًا؛ فَكُلُّ مَنِ انْضَمَّ تَحْتَ رَايَةِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ وَلِيٌّ لَنَا، لَوْ أَنَّ السَّلَفَ دَعَوْا إِلَى ذَلِكَ - لَمَا رَدُّوا عَلَى الْمُبْتَدِعَةِ، مِنَ الْجَهْمِيَّةِ، وَالْخَوَارِجِ، وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَالصُّوفِيَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَحَصَّنَ بِهَذِهِ الْمَعَالِمِ الَّتِي سَارَ عَلَيْهَا سَلَفُنَا الصَّالِحُ - رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُمْ -، وَأَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ قُدْوَةً لَهُ يَسِيرُ خَلْفَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «عَنْ عِلْمٍ وَقَفُوا، وَعَنْ عِلْمٍ نَطَقُوا»، رَضِيَ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ(١)، إِنَّ لِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ فَضْلًا عَظِيمًا وَأَجْرًا كَبِيرًا - دِينًا وَدُنْيَا - يَعُودُ عَلَى الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ.

مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ تَحْقِيقَ التَّوْحِيدِ وَتَخْلِيصَهُ وَتَنْقِيَتَهُ يُكْسِبُ الْأُمَّةَ أَمَانًا وَاطْمِئْنَانًا؛ كَمَا قَالَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الْأَنْعَامِ: ٨٢]، وَالظُّلْمُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ الشِّرْكُ؛ كَمَا فَسَّرَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ.

الْأَمْنُ التَّامُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مُرْتَبِطٌ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ، وَتَنْقِيَةِ الْأَعْمَالِ مِنَ الْإِشْرَاكِ بِاللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -؛ فَإِذَا وَقَعَتْ عَلَى الْعِبَادِ فِتْنَةٌ وَبَلِيَّةٌ، وَابْتُلُوا بِحَرْبٍ وَهَرْجٍ وَمَرْجٍ؛ فَإِنَّمَا ذَلِكَ بِسَبَبِ الْإِخْلَالِ بِالتَّوْحِيدِ، وَسَبَبِ فُشُوِّ شَيْءٍ مِنَ الشِّرْكِ أَوِ الْبِدَعِ أَوِ الْمَعَاصِي الَّتِي تَنْقُصُ دَوَامَ التَّوْحِيدِ.

وَمِنْ فَضَائِلِ التَّوْحِيدِ: أَنَّ صَاحِبَهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَا مَحَالَةَ مَهْمَا كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ وَمَعَاصِيهِ؛ وَلَا يَخْفَى عَلَى كَثِيرٍ مِنَّا حَدِيثُ صَاحِبِ الْبِطَاقَةِ، الَّذِي جَاءَ بِبِطَاقَةٍ فِيهَا شَهَادَةُ التَّوْحِيدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَأُخْرِجَ لَهُ سَبْعَةٌ وَسَبْعُونَ سِجِلًّا مَمْلُوءَةً بِالْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، فَلَمَّا رَآهَا انْبَهَرَ وَفَرِقَ، فَقَالَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: «إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ الْيَوْمَ شَيْئًا»؛ فَأُخْرِجَتْ هَذِهِ الْبِطَاقَةُ فَوُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ سِجِلَّاتُهُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَتَلَاشَتْ أَمَامَ التَّوْحِيدِ.

---

(١) الكتابة بخط مختلف كهذا - دائمًا - قصدتُ بها الإشارة إلى بداية الخطبة الثانية.

وَمِنْ فَضَائِلِ التَّوْحِيدِ: أَنَّ أَصْحَابَهُ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَةِ الْمُصْطَفَى - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ كَمَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ أَبِي

هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ».

فَفَضَائِلُ التَّوْحِيدِ - أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ - كَثِيرَةٌ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى؛ تُوجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْتَنِيَ بِهِ، وَأَنْ يَهْتَمَّ بِهِ.

وَلْنَضْرِبْ مَثَلًا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُخَالِفُ التَّوْحِيدَ، وَهِيَ مِنَ الْأُمُورِ الشِّرْكِيَّةِ شِرْكًا أَصْغَرَ؛ لِأَنَّ الشِّرْكَ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: إِلَى أَكْبَرَ قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النِّسَاءِ: ٤٨، ١١٦]، وَقَالَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِيهِ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [الْمَائِدَةِ: ٧٢]، وَهَذَا كَدُعَاءِ غَيْرِ اللهِ، وَكَالِاسْتِغَاثَةِ بِغَيْرِ اللهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ.

أَمَّا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؛ وَهُوَ مَا دُونَ ذَلِكَ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَخْرُجُ صَاحِبُهُ مِنَ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ، وَقَدْ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَأَنْ يُمَحَّصَ بِهَا، ثُمَّ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ.

فَهُوَ يُخَالِفُ أَهْلَ الْكَبَائِرِ هُنَا؛ فَأَهْلُ الْكَبَائِرِ إِلَى اللهِ: إِنْ شَاءَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَفَا عَنْهُمْ، وَإِنْ شَاءَ - عَزَّ وَجَلَّ - عَذَّبَهُمْ. أَمَّا

صَاحِبُ الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ فَقَدْ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ - وَهُوَ قَوْلٌ قَوِيٌّ - إِلَى أَنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلُوا النَّارَ، لَكِنَّهُمْ لَا يَخْلُدُونَ فِيهَا، وَبِذَلِكَ يُخَالِفُونَ أَهْلَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ، ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي بَعْضِ أَقْوَالِهِ.

وَمِنْ أَمْثَالِ هَذَا الشِّرْكِ: مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، وَهُوَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ ذَاتَ يَوْمٍ، فَوَجَدَهَا قَدْ وَضَعَتْ فِي عُنُقِهَا خَيْطًا؛ فَقَالَ لَهَا: «مَا هَذَا؟!». قَالَتْ: «هَذَا خَيْطٌ رُقِيَ لِي فِيهِ». فَغَضِبَ عَبْدُ اللهِ وَقَالَ: «إِنَّ آلَ عَبْدِ اللهِ لَأَغْنِيَاءُ عَنِ الشِّرْكِ؛ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ». فَقَالَتْ: «إِنَّ عَيْنِي تَقْذِفُ؛ فَأَخْتَلِفُ إِلَى فُلَانٍ الْيَهُودِيِّ، فَإِذَا رَقَاهَا بَرِئَتْ». فَقَالَ لَهَا: «إِنَّمَا ذَلِكَ شَيْطَانٌ يَنْخُسُهَا حَتَّى تَقْذِفَ، فَإِذَا رُقِيَتْ عِنْدَهُ - أَيْ عِنْدَ الْيَهُودِيِّ - كَفَّ الشَّيْطَانُ».

فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ.

وَالرُّقَى هِيَ الرُّقَى الشِّرْكِيَّةُ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى دُعَاءِ غَيْرِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وَالِاسْتِعَانَةِ بِمَنْ سِوَاهُ، كَدُعَاءِ الْجِنِّ، وَدُعَاءِ الصَّالِحِينَ، وَدُعَاءِ الْأَمْوَاتِ عُمُومًا، وَدُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ، وَدُعَاءِ

الْأَنْبِيَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذَا الدُّعَاءُ شِرْكٌ أَكْبَرُ؛ فَالرُّقَى الشِّرْكِيَّةُ إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى هَذَا الدُّعَاءِ فَإِنَّ الْقَائِلَ بِهَذِهِ الرُّقْيَةِ الْمُتَلَفِّظَ بِهَا مُشْرِكٌ شِرْكًا أَكْبَرَ؛ لِأَنَّهُ تَلَفَّظَ بِالْكُفْرِ. فَالرُّقَى الشِّرْكِيَّةُ هِيَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْإِشْرَاكِ بِاللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَإِنْ كَانَ شِرْكًا أَكْبَرَ؛ فَصَاحِبُهَا خَارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ، وَإِنْ كَانَ شِرْكًا أَصْغَرَ؛ فَصَاحِبُهَا لَا يَخْرُجُ مِنَ الْمِلَّةِ.

أَمَّا الرُّقَى الَّتِي تَكُونُ مُشْتَمِلَةً عَلَى الْأَدْعِيَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالْأَذْكَارِ النَّبَوِيَّةِ فَهَذِهِ لَا شَيْءَ فِيهَا. وَلِذَلِكَ؛ لَمَّا عَرَضَ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - عَلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمْرَهُمْ عِنْدَمَا كَانُوا يَسْتَرْقُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: «لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا».

وَالرُّقْيَةُ الشَّرْعِيَّةُ هِيَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَى أُمُورٍ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: أَنْ تَكُونَ بِكَلَامِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، أَوْ بِأَسْمَائِهِ، أَوْ بِصِفَاتِهِ.

وَالْأَمْرُ الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ؛ لِكَيْ يُفْهَمَ مَعْنَاهَا، وَإِذَا فُهِمَ مَعْنَاهَا اسْتَطَاعَ الْفَاهِمُ أَنْ يُمَيِّزَ هَلْ هَذَا شِرْكٌ أَمْ لَيْسَ شِرْكًا.

وَالْأَمْرُ الثَّالِثُ: أَنْ لَا يُعْتَقَدَ التَّأْثِيرُ فِيهَا بِذَاتِهَا؛ وَإِنَّمَا تُؤَثِّرُ بِقُوَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَبِأَمْرِهِ - عَزَّ وَجَلَّ -.

فَهَذِهِ هِيَ الرُّقَى.

أَمَّا التَّمَائِمُ فَهِيَ مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ، وَهِيَ شِرْكِيَّةٌ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْهَا مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ بِدْعَةٌ مُنْكَرَةٌ، لَا يَجُوزُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَفْعَلَهَا. وَالتَّمَائِمُ هِيَ شَيْءٌ يَكْتُبُونَهُ مِنَ الْأَذْكَارِ الشَّرْعِيَّةِ، وَيَلُفُّونَهُ فِي جِلْدٍ، وَيَضَعُونَهُ عَلَى صُدُورِهِمْ، أَوْ فِي ثِيَابِهِمْ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ؛ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يَقِي مِنَ الْعَيْنِ، وَأَكْثَرُ مَا يُفْعَلُ ذَلِكَ مَعَ الصِّبْيَانِ.

فَهَذِهِ التَّمَائِمُ شِرْكٌ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ دُونِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وَإِذَا تَعَلَّقَ بِهَا الْقَلْبُ فَقَدْ أَشْرَكَ مَعَ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - غَيْرَهُ.

لَكِنْ - كَمَا قُلْنَا - إِنْ كَانَتْ هَذِهِ التَّمَائِمُ مِنَ الْقُرْآنِ فَإِنَّهَا بِدْعَةٌ لَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَضَعَهَا وَلَيْسَتْ شِرْكًا؛ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ -: «كَانُوا - أَيْ: أَصْحَابُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ - يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ مِنَ الْقُرْآنِ وَمِنْ غَيْرِهَا».

أَمَّا التِّوَلَةُ فَهِيَ الَّتِي اشْتَهَرَتِ الْآنَ وَانْتَشَرَتْ بَيْنَ النِّسَاءِ، يَزْعُمُونَ أَنَّ هَذِهِ التِّوَلَةَ تُحَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا، وَتُحَبِّبُ الزَّوْجَ إِلَى امْرَأَتِهِ، وَهِيَ مَا يُسَمَّى بِالصَّرْفِ وَالْعَطْفِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَهَذَا إِنَّمَا يُؤْخَذُ عَنِ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ وَالْمُنَجِّمِينَ الَّذِينَ وَرَدَ ذَمُّهُمْ فِي الشَّرْعِ، وَحَذَّرَنَا مِنْهُمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ فَقَالَ فِيمَا ثَبَتَ عَنْهُ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -».

فَهَذِهِ أَمْثِلَةٌ - أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ - لِلشِّرْكِ الْأَكْبَرِ وَالشِّرْكِ الْأَصْغَرِ تَدُلُّ عَلَى مَا وَرَاءَهَا؛ فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ جَاهِدًا فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ، حَرِيصًا عَلَى الْإِلْمَامِ بِهِ، وَلَوْ كَانَ عَامِّيًّا، وَلَوْ كَانَ عَادِيًّا، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

نَسْأَلُ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَنْ يُوَفِّقَنَا وَإِيَّاكُمْ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَأَنْ يَحْفَظَ عَلَيْنَا عَقِيدَتَنَا وَتَوْحِيدَنَا مِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ، مِنْ شَائِبَةِ الْمَعَاصِي وَالْبِدَعِ وَالْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ، إِنَّهُ لِيٌّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ.

الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ:

أَثَرُ إِقَامَةِ الْحُدُودِ

عِبَادَ اللهِ، أَخْرَجَ ابْنُ مَاجَةَ فِي (سُنَنِهِ) وَابْنُ حِبَّانَ فِي (صَحِيحِهِ) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «حَدٌّ يُعْمَلُ بِهِ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا»، هَذَا لَفْظُ ابْنِ مَاجَةَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «يَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً، وَحَدٌّ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ بِحَقِّهِ أَزْكَى فِيهَا مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ عَامًا».

قَالَ الْمُنْذِرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ -: «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَهُوَ غَرِيبٌ بِهَذَا اللَّفْظِ». انْتَهَى.

وَهُوَ بِاللَّفْظِ الْأَوَّلِ حَدِيثٌ حَسَنٌ؛ فَإِنَّ لَهُ طُرُقًا وَشَوَاهِدَ يَتَقَوَّى بِهَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، لَقَدْ شَرَعَ اللهُ - تَعَالَى - الْقِصَاصَ وَالْحُدُودَ وَالتَّعْزِيرَاتِ لِحِكَمٍ بَالِغَةٍ، وَمَصَالِحَ عُظْمَى؛ فَهِيَ مِنْ مَظَاهِرِ رَحْمَةِ اللهِ - تَعَالَى - بِعِبَادِهِ، وَلُطْفِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِهِمْ؛ إِذْ هِيَ عَامِلٌ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوَامِلِ لِلْحِفَاظِ عَلَى الضَّرُورِيَّاتِ الْخَمْسِ: الدِّينِ، وَالنَّفْسِ، وَالْعَقْلِ، وَالْعِرْضِ، وَالْمَالِ. وَالَّتِي مَتَى مَا حُفِظَتِ اسْتَقَرَّ الْمُجْتَمَعُ وَأَمِنَ وَاطْمَأَنَّ، وَهَذَا الْمَقْصِدُ - وَهُوَ أَمْنُ الْمُجْتَمَعِ - مَطْلَبٌ لِجَمِيعِ الْبَشَرِ، يَسْعَوْنَ إِلَى الظَّفَرِ بِهِ وَتَحْصِيلِهِ مَهْمَا كَلَّفَهُمْ مِنْ ثَمَنٍ، وَهُوَ - يَا عِبَادَ اللهِ - مُودَعٌ فِي تَنْفِيذِ الْقِصَاصِ وَالْحُدُودِ وَالتَّعْزِيرَاتِ الَّتِي شَرَعَهَا اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

وَلِذَا؛ فَإِنَّ إِقَامَةَ حَدٍّ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ مَطَرٍ نَافِعٍ يَسْتَمِرُّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مُتَتَالِيَةً، أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ يَعْظُمُ انْتِفَاعُ النَّاسِ بِمِثْلِ هَذَا الْمَطَرِ؟ إِنَّ إِقَامَةَ حَدٍّ وَاحِدٍ أَعْظَمُ نَفْعًا لَهُمْ وَأَكْثَرُ فَائِدَةً مِنْ هَذَا الْمَطَرِ النَّافِعِ الْمُسْتَمِرِّ.

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ شَرَعَ اللهُ - تَعَالَى - حَدَّ الرِّدَّةِ حِمَايَةً لِحُرْمَةِ الدِّينِ، وَشَرَعَ الْقِصَاصَ فِي النَّفْسِ وَالْأَطْرَافِ حِمَايَةً لِحُرْمَةِ النَّفْسِ، وَشَرَعَ حَدَّ الْخَمْرِ حِمَايَةً لِحُرْمَةِ الْعَقْلِ، وَشَرَعَ - تَعَالَى - حَدَّ الزِّنَى وَحَدَّ الْقَذْفِ حِمَايَةً لِحُرْمَةِ الْأَعْرَاضِ، وَشَرَعَ اللهُ - سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى - حَدَّ السَّرِقَةِ حِمَايَةً لِحُرْمَةِ الْمَالِ، وَجَاءَ حَدُّ الْحِرَابَةِ أَغْلَظَ الْحُدُودِ؛ لِأَنَّ الْحِرَابَةَ بِهَا كُلُّ حُرُمَاتِ الْمُجْتَمَعِ كُلُّهَا.

فَإِذَا طُبِّقَتْ هَذِهِ الْحُدُودُ؛ عَمَّ النَّفْعُ الْأَفْرَادَ وَالْجَمَاعَاتِ وَالدَّوْلَةَ؛ لِمَا فِي تَنْفِيذِهَا مِنِ امْتِثَالِ أَمْرِ اللهِ - تَعَالَى - وَإِقَامَةِ شَرْعِهِ؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [الْمَائِدَةِ: ١٧٨]، وَلِمَا فِي تَنْفِيذِهَا مِنْ رَدْعٍ وَزَجْرٍ وَتَخْوِيفٍ يُضَيِّقُ مَجَالَ الْجَرِيمَةِ، وَيَحُدُّ مِنِ انْتِشَارِهَا؛ ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٧٩]؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ أَرَادَ الْقَتْلَ وَعَلِمَ أَنَّهُ سَيُقْتَلُ؛ انْزَجَرَ، وَذُعِرَ؛ فَلَمْ يُقْدِمْ عَلَى جَرِيمَتِهِ، وَبِذَلِكَ تُحْقَنُ الدِّمَاءُ، وَتَنْقَلِعُ الْأَشْقِيَاءُ.

وَهَكَذَا - يَا عِبَادَ اللهِ - سَائِرُ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ؛ فِيهَا مِنَ النِّكَايَةِ وَالزَّجْرِ مَا هُوَ كَفِيلٌ بِكَفِّ النَّاسِ عَنِ الْوُقُوعِ فِي مُوجِبَاتِهَا.

وَفِي تَنْفِيذِ الْحُدُودِ حَسْمُ الْفَوْضَى، وَاسْتِتَابُ الْأَمْنِ، وَدَفْعُ الْفِتَنِ.

يَقُولُ اللهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - بَعْدَ ذِكْرِ قِصَّةِ ابْنَيْ آدَمَ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الْمَائِدَةِ: ٣٢]، وَفَائِدَةُ التَّشْبِيهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الرَّدْعُ

الْقَوِيُّ عَنْ قَتْلِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ؛ لِأَنَّهُ - تَعَالَى - صَوَّرَ قَتْلَ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ بِصُورَةِ قَتْلِ جَمِيعِ النَّاسِ، وَفَائِدَةُ التَّشْبِيهِ - أَيْضًا - التَّرْغِيبُ فِي إِحْيَاءِ النَّفْسِ؛ لِأَنَّهُ - تَعَالَى - صَوَّرَ إِحْيَاءَهَا بِصُورَةِ إِحْيَاءِ جَمِيعِ النَّاسِ.

فَالْمُجْتَمَعُ الَّذِي تُقَامُ فِيهِ الْحُدُودُ تَجِدُهُ أَكْثَرَ الْمُجْتَمَعَاتِ أَمْنًا، وَأَقَلَّهَا فِتَنًا؛ ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الْحُجُرَاتِ: ٨]، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٠٥، آلِ عِمْرَانَ: ٧٤، الْأَنْفَالِ: ٢٩، الْحَدِيدِ: ٢١، ٢٩، الْجُمُعَةِ: ٤].

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ عَلِمَ الْقَاصِي وَالدَّانِي وَالْمُحِبُّ وَالْمُبْغِضُ أَنَّ هَذِهِ الْبِلَادَ - بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى - آمِنَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ؛ سُبُلُهَا آمِنَةٌ، مُدُنُهَا عَلَى كِبَرِهَا آمِنَةٌ، قُرَاهَا عَلَى بُعْدِهَا آمِنَةٌ، الْأَمْنُ - بِحَمْدِ اللهِ - عَمَّ الْحَاضِرَ وَالْبَادِ، وَغَمَرَ الْمَدَرَ وَالْوَبَرَ، أَمَّا الْجَرِيمَةُ فَهِيَ عَلَى قِلَّتِهَا قَدْ ضُيِّقَ عَلَيْهَا الْخِنَاقُ، وَوُقِفَ لَهَا بِالْمِرْصَادِ فِي كُلِّ طَرِيقٍ.

فَقُلْ لِي - بِرَبِّكَ -: مَا الَّذِي خَصَّنَا بِهَذِهِ النِّعْمَةِ دُونَ أَكْثَرِ الْعِبَادِ؟

إِنَّهُ تَوْحِيدُ اللهِ - تَعَالَى -، وَإِفْرَادُهُ بِجَمِيعِ الْعِبَادَاتِ، وَالطَّهَارَةُ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ الَّذِي حَرَّمَ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى صَاحِبِهِ، فَبِلَادُنَا - بِحَمْدِ اللهِ - مِنْ مَظَاهِرِ الشِّرْكِ سَالِمَةٌ، وَلِمَنَائِرِهِ هَادِمَةٌ.

قَالَ اللهُ - تَعَالَى -: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الْأَنْعَامِ: ٨٢].

وَمِنْ آثَارِ ذَلِكَ التَّوْحِيدِ: تَطْبِيقُ حُدُودِ اللهِ - تَعَالَى -، وَإِقَامَةُ شَرْعِهِ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَالْقَاتِلُ يُقْتَلُ، وَالسَّارِقُ يُقْطَعُ، وَالزَّانِي يُجْلَدُ أَوْ يُرْجَمُ، وَالشَّارِبُ يُجْلَدُ.

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي وَفَّقَ اللهُ - تَعَالَى - دَوْلَةَ التَّوْحِيدِ لَهَا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الدُّوَلِ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ، نَسْأَلُهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَنْ يَزِيدَهَا عِزَّةً وَقُوَّةً، وَأَنْ يُوَفِّقَهَا لِكُلِّ خَيْرٍ، وَأَنْ يُجَنِّبَهَا كُلَّ شَرٍّ وَمَكْرُوهٍ، وَأَنْ يُحَبِّبَ إِلَيْهَا الْإِيمَانَ وَيُزَيِّنَهُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَنْ يُكَرِّهَ إِلَيْهِمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ.

وَالْمُسْلِمُ السَّالِمُ مِنَ الْهَوَى يَحْفَظُ لَهُمْ هَذَا الْفَضْلَ، وَيَشْكُرُ لَهُمْ هَذَا الْخَيْرَ؛ فَيَدْعُو لَهُمْ بِالتَّوْفِيقِ وَالتَّسْدِيدِ، وَيَتَحَرَّى بِذَلِكَ أَوْقَاتَ الْإِجَابَةِ.

رَحِمَ اللهُ ابْنَ الْمُبَارَكِ إِذْ يَقُولُ:

إِنَّ الْجَمَاعَةَ حَبْلُ اللهِ فَاعْتَصِمُوا

مِنْهُ بِعُرْوَتِهِ الْوُثْقَى لِمَنْ دَانَى

كَمْ يَرْفَعِ اللهُ بِالسُّلْطَانِ مَظْلَمَةً فِي دِينِنَا رَحْمَةً مِنْهُ وَدُنْيَانَا

لَوْلَا الْخِلَافَةُ لَمْ تَأْمَنْ لَنَا سُبُلٌ وَكَانَ أَضْعَفُنَا نَهْبًا لِأَقْوَانَا

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى – فِي الْأُمَرَاءِ:

«هُمْ يَلُونَ مِنْ أُمُورِنَا خَمْسَةً: الْجُمُعَةَ، وَالْجَمَاعَةَ، وَالْعِيدَ، وَالثُّغُورَ، وَالْحُدُودَ.

وَاللهِ لَا يَسْتَقِيمُ الدِّينُ إِلَّا بِهِمْ وَإِنْ جَارُوا وَظَلَمُوا، وَاللهِ لَمَا يُصْلِحُ اللهُ بِهِمْ أَكْثَرُ مِمَّا يُفْسِدُونَ، مَعَ أَنَّ طَاعَتَهُمْ – وَاللهِ – لَغَيْظٌ – يَعْنِي لِلْأَعْدَاءِ –، وَأَنَّ فُرْقَتَهُمْ لَكُفْرٌ – يَعْنِي دُونَ كُفْرٍ –».

ذَكَرَهُ عَنْهُ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ فِي (جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ)، وَرَاهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي كِتَابِهِ (آدَابِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ).

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، إِنَّ الْمُسْلِمَ حِينَمَا يَسْمَعُ بَيَانَاتِ إِقَامَةِ حُدُودِ اللهِ – تَعَالَى – فِي هَذِهِ الْبِلَادِ لَيَفْرَحُ فَرَحًا عَظِيمًا؛ اسْتِجَابَةً لِقَوْلِ اللهِ – تَعَالَى –: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]؛ فَإِقَامَةُ الْحُدُودِ فَضْلٌ مِنَ اللهِ عَظِيمٌ، كَمَا أَنَّهُ رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ كَبِيرَةٌ، لَا يَقْدِرُ قَدْرَهَا إِلَّا الْعَاقِلُونَ الْعَالِمُونَ.

إِنَّ إِقَامَةَ حَدِّ السِّحْرِ الَّذِي نَسْمَعُهُ هَذِهِ الْأَيَّامَ أَبْلَغُ – وَاللهِ – مِنْ أَلْفِ خُطْبَةٍ وَأَلْفِ مُحَاضَرَةٍ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ؛ لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ حُكْمِ السِّحْرِ عَمَلِيًّا، وَمَا يُثْمِرُهُ مِنِ ابْتِعَادِ النَّاسِ عَنِ السِّحْرِ وَالسَّحَرَةِ، وَمَا يُلْقِيهِ مِنَ الرُّعْبِ فِي أَفْئِدَةِ السَّحَرَةِ وَأَعْوَانِهِمْ؛ فَيَكُفُّوا شَرَّهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَنْأَوْا عَنْ بِلَادِهِمْ.

فَكَمْ مِنْ أَجْرٍ وَثَوَابٍ يَنَالُهُ مَنْ أَمَرَ بِتَنْفِيذِ حُكْمِ السِّحْرِ، وَسَخَّرَ وَسَائِلَ إِعْلَامِهِ لِإِبْلَاغِ هَذَا الْحُكْمِ الْقَاصِيَ وَالدَّانِيَ، دُونَ مُحَابَاةٍ لِأَحَدٍ، أَوْ خَوْفٍ مِنْ بَشَرٍ؛ فَاللهُ – جَلَّ وَعَلَا – يُثِيبُهُ أَكْمَلَ الْجَزَاءِ، وَيَرْفَعُ مَنَازِلَهُ فِي الدَّارَيْنِ، وَيَحْفَظُهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَلِيَّةٍ.

أَيُّهَا النَّاسُ، هُنَاكَ فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ يَتَحَدَّثُونَ فِي قَضَايَا كَبِيرَةٍ فَوْقَ مَكَانَتِهِمْ؛ فَيُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ بِذَلِكَ لِلْقَوْلِ عَلَى اللهِ وَعَلَى دِينِهِ وَشَرْعِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُنَزِّلُ نَفْسَهُ مَنْزِلَةَ الْقُضَاةِ؛ فَيَقُولُ: لِمَ لَا يُقْتَلُ هَذَا؟! لِمَ لَا يُرْجَمُ هَذَا؟! لِمَ لَا يُجْلَدُ هَذَا؟!

وَكَأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَ بِالْعِلْمِ، وَنُصِّبَ لِلْقَضَاءِ، وَمَا عَلِمَ هَذَا الْجَاهِلُ أَنَّ مَجْلِسَ الْقَضَاءِ مُخْتَلِفٌ جِدًّا عَنْ مَجْلِسِهِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ؛ فَمَجْلِسُ الْقَضَاءِ مَجْلِسُ شُهُودٍ وَبَيِّنَاتٍ،

حَتَّى أَنَّ الْقَاضِيَ لَا يَصِحُّ لَهُ فِي الشَّرْعِ أَنْ يَحْكُمَ بِعِلْمِهِ فِي الْقَضِيَّةِ؛ فَالْقَضَاءُ عِلْمٌ وَاسِعٌ، إِنَّمَا يُجِيدُهُ أَهْلُهُ الْأَكْفَاءُ، وَلَيْسَ تَخَرُّصًا وَحَدْسًا، وَلَيْسَ عَاطِفَةً وَحَمَاسَةً.

أَتَعْلَمُ – أَيُّهَا الْخَائِضُ فِي الْأَقْضِيَةِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهَا! – أَنَّ قَاعِدَةَ (الْحُدُودُ تُدْرَأُ بِالشُّبُهَاتِ) قَاعِدَةٌ صَحِيحَةٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهَا؟!

صَحَّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّهُ قَالَ: «ادْرَؤُوا الْجَلْدَ وَالْقَتْلَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ»، أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَالْبَيْهَقِيُّ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ – قَالَ السَّخَاوِيُّ: وَأَخْرَجَهُ ابْنُ حَزْمٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ – عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّهُ قَالَ: «لَأَنْ أُعَطِّلَ الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُقِيمَهَا فِي الشُّبُهَاتِ».

وَقَدْ جَاءَ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَحَادِيثُ مَرْفُوعَةٌ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَعَ مَاعِزٍ وَالْغَامِدِيَّةِ إِلَّا دَلِيلٌ صَرِيحٌ عَلَى صِحَّةِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ.

فَهَلْ عَلِمَ ذَلِكَ الْمُتَكَلِّمُ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ وَأَمْثَالَهَا، أَمْ أَنَّهُ جَهِلَهَا فَأُتِيَ مِنْ قِبَلِ جَهْلِهِ؟!

فَحَذَارِ حَذَارِ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – مِنَ الْخَوْضِ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، وَإِذَا لَمْ يُكَلِّفِ الْإِنْسَانُ بِالْحُكْمِ؛ فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَلْيَسْلَمْ، وَلَا يُدْخِلَنَّ نَفْسَهُ فِيمَا لَا يَخُصُّهُ وَلَا يَعْنِيهِ؛ فَإِنَّ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكَ مَا لَا يَعْنِيهِ.

الْخُطْبَةُ الثَّالِثَةُ: أَحْكَامُ الطَّلَاقِ

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ أَمَرَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – الزَّوْجَ إِذَا رَأَى مِنْ زَوْجَتِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ أَنْ يَعِظَهَا أَوَّلًا، وَذَلِكَ بِبَيَانِ مَا افْتَرَضَهُ اللهُ – تَعَالَى – عَلَيْهَا مِنْ وُجُوبِ طَاعَتِهِ، وَمَا حَرَّمَهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – عَلَيْهَا مِنْ مَعْصِيَتِهِ. فَإِنِ انْتَهَتْ فَذَاكَ، وَإِلَّا؛ انْتَقَلَ إِلَى الْأَمْرِ الثَّانِي؛ وَهُوَ هَجْرُهَا فِي الْمَضْجَعِ: بِأَنْ لَا يَبِيتَ مَعَهَا فِي فِرَاشٍ وَاحِدٍ، وَلَا يَطَأَ. فَإِنِ انْتَهَتْ فَذَاكَ، وَإِلَّا؛ ضَرَبَهَا ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ.

وَيُرَاعِي فِي ذَلِكَ الصَّبْرَ عَلَيْهَا فَلَا يُطَلِّقُ؛ إِذْ قَدْ تَسْتَقِيمُ أَخْلَاقُهَا، وَتَحْسُنُ مُعَامَلَتُهَا.

وَلْيَتَذَكَّرْ قَوْلَ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا –: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، وَقَوْلَ

النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً؛ إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ».

فَإِنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الصَّبْرِ عَلَيْهَا؛ جَازَ لَهَا طَلَاقُهَا، وَهُوَ أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –.

وَلْيُرَاعِ فِي طَلَاقِهَا أَنْ يَكُونَ الطَّلَاقُ لِلْعِدَّةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – بِهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، وَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْعِدَّةَ كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – بِقَوْلِهِ: «فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا؛ فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – بِهَا».

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُمَا – فِي قَوْلِ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا –: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾: «لَا يُطَلِّقُهَا وَهِيَ حَائِضٌ، وَلَا فِي طُهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ؛ وَلَكِنْ يَتْرُكُهَا حَتَّى إِذَا حَاضَتْ وَطَهُرَتْ طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً وَاحِدَةً».

وَقَدْ أَخَذَ الْعِلْمُ – رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى – مِنْ هَذَا أَحْكَامَ الطَّلَاقِ؛ فَقَسَّمُوهُ إِلَى طَلَاقِ سُنَّةٍ مَشْرُوعٍ، وَإِلَى طَلَاقِ بِدْعَةٍ مَمْنُوعٍ، وَإِلَى طَلَاقٍ لَا سُنَّةَ فِيهِ وَلَا بِدْعَةَ.

فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَعَلَّمَ هَذِهِ الْأَحْكَامَ؛ لِئَلَّا يَقَعَ فِي الْمَحْظُورِ، وَلِأَجْلِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْمَأْمُورِ شَرْعًا.

فَطَلَاقُ السُّنَّةِ هُوَ أَنْ يُطَلِّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ فِي طُهْرٍ لَمْ يُجَامِعْهَا فِيهِ، أَوْ وَهِيَ حَامِلٌ قَدِ اسْتَبَانَ حَمْلُهَا.

وَطَلَاقُ الْبِدْعَةِ أَنْ يُطَلِّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ حَالَ الْحَيْضِ، أَوْ فِي طُهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ.

وَالطَّلَاقُ الَّذِي لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ سُنَّةٌ وَلَا بِدْعَةٌ هُوَ طَلَاقُ الْآيِسَةِ، وَالصَّغِيرَةِ، وَغَيْرِ الْمَدْخُولِ بِهَا؛ فَيَجُوزُ تَطْلِيقُ هَؤُلَاءِ فِي أَيِّ وَقْتٍ شَاءَ الرَّجُلُ.

فَلَا يَجُوزُ لِرَجُلٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ حَالَ الْحَيْضِ، أَوْ أَنْ يُطَلِّقَهَا فِي طُهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ تَعَدٍّ عَلَى حُدُودِ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا –، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَطَلَّقَ امْرَأَتَهُ حَالَ الْحَيْضِ، أَوْ فِي طُهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ؛ فَقَدْ أَغْضَبَ رَبَّهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –، وَبَاءَ بِإِثْمِهِ،

وَطَلُقَتْ مِنْهُ امْرَأَتُهُ فِي قَوْلِ جَمَاهِيرِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

وَالسُّنَّةُ فِي عَدَدِ الطَّلَاقِ أَنْ يُطَلِّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ طَلْقَةً وَاحِدَةً فِي طُهْرٍ لَمْ يُجَامِعْهَا فِيهِ، ثُمَّ يَتْرُكَهَا حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا؛ لِيَكُونَ فِي ذَلِكَ تَوْسِيعٌ عَلَيْهِ إِنْ أَرَادَ أَنْ يُرَاجِعَهَا.

وَيَحْرُمُ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا، سَوَاءٌ كَانَتْ مُتَفَرِّقَاتٍ فِي طُهْرٍ وَاحِدٍ أَوْ مَجْمُوعَاتٍ – كَقَوْلِهِ: أَنْتِ طَالِقٌ ثَلَاثًا –؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – غَضِبَ عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ، وَقَالَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: «أَيُلْعَبُ بِكِتَابِ اللهِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟!»، وَكَانَ عُمَرُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – إِذَا أُتِيَ لَهُ بِرَجُلٍ قَدْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا أَوْجَعَهُ ضَرْبًا.

وَإِنَّ الْعَجَبَ لَا يَنْقَضِي مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَعَدَّوْنَ حُدُودَ اللهِ وَيُغْضِبُونَهُ بِطَلَاقِ نِسَائِهِمْ ثَلَاثًا دَفْعَةً وَاحِدَةً فِي طُهْرٍ وَاحِدٍ، مَعَ أَنَّ الطَّلَاقَ يَحْصُلُ الْمَقْصُودُ مِنْهُ بِوَاحِدَةٍ فَقَطْ، وَهَذَا تَيْسِيرٌ مِنَ اللهِ، فَيَأْبَوْنَ إِلَّا التَّضْيِيقَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ!!

وَرَضِيَ اللهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، طَلَّقْتُ امْرَأَتِي ثَلَاثًا. فَسَكَتَ، حَتَّى ظَنَّ

الْقَوْمُ أَنَّهُ سَيَرُدُّهَا إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَنْطَلِقُ أَحَدُكُمْ فَيَرْكَبُ الْحُمُوقَ ثُمَّ يَقُولُ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، يَا ابْنَ عَبَّاسٍ.. وَإِنَّ اللهَ – تَعَالَى – يَقُولُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، وَأَنْتَ لَمْ تَتَّقِ اللهَ؛ فَلَنْ أَجِدَ لَكَ مَخْرَجًا، عَصَيْتَ رَبَّكَ فَبَانَتْ مِنْكَ امْرَأَتُكَ، وَإِنَّ اللهَ – تَعَالَى – يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

فَلْيَتَّقِ اللهَ – تَعَالَى – أُنَاسٌ يَتَلَاعَبُونَ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَعْبَثُونَ بِأَحْكَامِ الطَّلَاقِ، غَيْرَ مُرَاعِينَ مَا شَرَعَهُ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – فِيهِ مِنْ أَحْكَامٍ جَلِيلَةٍ.

وَإِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ بِلَفْظٍ صَرِيحٍ – كَقَوْلِهِ: أَنْتِ طَالِقٌ، أَوْ مُطَلَّقَةٌ، أَوْ طَلَّقْتُكِ – فَإِنَّ الطَّلَاقَ يَقَعُ، سَوَاءٌ نَوَى إِيقَاعَ الطَّلَاقِ بِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ أَمْ لَمْ يَنْوِ، وَسَوَاءٌ كَانَ جَادًّا أَوْ هَازِلًا؛ لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «ثَلَاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ».

أَمَّا إِذَا تَلَفَّظَ بِكِنَايَةِ الطَّلَاقِ – كَأَنْ يَقُولَ: أَنْتِ بَتَّةٌ، أَوْ بَائِنٌ، أَوِ اذْهَبِي، أَوِ اخْرُجِي، أَوِ الْحَقِي بِأَهْلِكِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْفَاظِ –

فَيُشْتَرَطُ فِي إِيقَاعِ الطَّلَاقِ بِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ أَنْ يَنْوِيَ إِيقَاعَ الطَّلَاقِ حَالَ التَّلَفُّظِ بِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ؛ لِأَنَّهَا أَلْفَاظٌ تَحْتَمِلُ الطَّلَاقَ وَتَحْتَمِلُ غَيْرَهُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَحْدِيدِ الْمَقْصُودِ إِلَّا بِنِيَّةِ الْمُتَلَفِّظِ؛ فَإِنْ قَالَ: (نَوَيْتُ بِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ الطَّلَاقَ) وَقَعَ، وَإِلَّا؛ فَلَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، فَإِنَّ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يُشْهِدَ رَجُلَيْنِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ.

وَإِذَا طَلَّقَهَا طَلَاقًا رَجْعِيًّا فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُخْرِجَهَا مِنْ بَيْتِهِ، وَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَخْرُجَ مِنْ بَيْتِهِ؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمَا فَقَدْ عَصَى اللهَ – جَلَّ وَعَلَا –، وَتَعَدَّى حُدُودَهُ، وَظَلَمَ نَفْسَهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ بَقَاءَهَا فِي بَيْتِهَا أَدْعَى لِلْمُرَاجَعَةِ، وَأَحْرَى لِلْمُصَافَاةِ وَالْمَوَدَّةِ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – بِإِبْقَائِهِنَّ فِي الْبُيُوتِ فَقَالَ – جَلَّ وَعَلَا –: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

الْخُطْبَةُ الرَّابِعَةُ: أَحْكَامُ الْعِيدِ

هُنَاكَ مُنَاسَبَاتٌ شَرْعِيَّةٌ يَفْرَحُ فِيهَا الْمُسْلِمُ بِفَضْلِ اللهِ – تَعَالَى – وَكَرَمِهِ، وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَجْعَلُونَ لَهُمْ أَيَّامًا يَفْرَحُونَ فِيهَا وَيَطْرَبُونَ، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ مُبَدِّلًا هَذِهِ الْعَادَةَ إِلَى شَرِيعَةٍ مَحْمُودَةٍ هِيَ يَوْمُ عِيدَيِ الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى؛ مَكْرُمَةً مِنَ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –.

يَقُولُ أَنَسٌ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –: «قَدِمَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْمَدِينَةَ وَلِأَهْلِهَا يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؛ فَقَالَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ وَلَكُمْ يَوْمَانِ تَلْعَبُونَ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَدْ أَبْدَلَكُمُ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْفِطْرِ، وَيَوْمَ الْأَضْحَى».

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ شَرَعَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – فِي الْعِيدِ سُنَنًا وَآدَابًا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَلْتَزِمَهَا، وَأَنْ يَحْرِصَ عَلَيْهَا.

فَمِنْ ذَلِكَ: يُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَطَيَّبَ، وَأَنْ يَغْتَسِلَ، وَأَنْ يَلْبَسَ أَجْمَلَ ثِيَابِهِ لِيَوْمِ الْعِيدِ، وَأَنْ يُبَكِّرَ إِلَى الصَّلَاةِ، وَأَنْ يَدْنُوَ مِنَ الْإِمَامِ؛ لِيَشْهَدَ دَعْوَةَ الْمُسْلِمِينَ وَخَيْرَاتِهِمْ، وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَخْرُجَ

النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ إِلَى الْأَعْيَادِ، «وَلْتَعْتَزِلِ الْحُيَّضُ الْمُصَلَّى»؛ كَمَا أَمَرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

وَصَلَاةُ الْعِيدِ فَرْضُ كِفَايَةٍ إِذَا قَامَ بِهَا مَنْ يَكْفِي سَقَطَ الْإِثْمُ عَنِ الْبَاقِينَ، وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُسَابِقَ إِلَيْهَا، وَأَنْ يَحْرِصَ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا شَعِيرَةٌ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –؛ فَالْحِرْصُ عَلَيْهَا دَلِيلٌ عَلَى تَعْظِيمِهَا فِي الصَّدْرِ.

وَصَلَاةُ الْعِيدِ – كَمَا تَعْلَمُونَ – رَكْعَتَانِ، يَفْتَتِحُهُمَا الْإِمَامُ بِتَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتِّ تَكْبِيرَاتٍ مُتَتَالِيَةٍ، يُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقُولَ بَيْنَ كُلِّ تَكْبِيرَةٍ مِنْ هَذِهِ التَّكْبِيرَاتِ السِّتِّ: اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرًا وَأَصِيلًا، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا. رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ –، فَإِنْ قَالَ الْمُسْلِمُ ذَلِكَ فَحَسَنٌ، وَإِنْ لَمْ يَقُلْهُ فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ هَذَا سُنَّةٌ، بَلْ إِنَّ التَّكْبِيرَاتِ الزَّوَائِدَ سُنَّةٌ – أَيْضًا –؛ لَوْ تَرَكَهَا فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ.

ثُمَّ يَقْرَأُ الْفَاتِحَةَ وَمَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ يَرْكَعُ رَكْعَةً مُعْتَادَةً، ثُمَّ إِلَى قَامَ إِلَى الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ كَبَّرَ خَمْسَ تَكْبِيرَاتٍ مُتَتَالِيَةٍ، يَقُولُ بَيْنَ كُلِّ تَكْبِيرَةٍ مَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا: اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلهِ

كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

وَيُلَاحَظُ أَنَّهُ لَا يُشْرَعُ الْجَهْرُ مِنَ الْمَأْمُومِينَ بِهَذِهِ التَّكْبِيرَاتِ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمَأْمُومِينَ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ الْأَخِيرَةِ إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: (اللهُ أَكْبَرُ) كَبَّرُوا قَائِلِينَ: (اللهُ أَكْبَرُ)؛ بَلِ السُّنَّةُ أَنْ يَخْفِضَ الْمُسْلِمُ صَوْتَهُ بِهَذَا التَّكْبِيرِ؛ فَلَا يُسْمِعُ غَيْرَهُ بِهِ.

كَذَلِكَ يُسْتَحَبُّ فِي الْعِيدِ أَنْ يَذْهَبَ الْمُسْلِمُ مِنْ طَرِيقٍ وَأَنْ يَرْجِعَ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَشْيًا عَلَى الْأَقْدَامِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ مُتَيَسِّرًا لَهُ؛ فَقَدْ كَانَ نَبِيُّكُمْ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – يَذْهَبُ إِلَى الْعِيدِ مَاشِيًا، يَذْهَبُ مِنْ طَرِيقٍ وَيَرْجِعُ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ.

وَكَذَلِكَ يُشْرَعُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْيَوْمِ أَنْ يُهَنِّئَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ؛ فَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَمَا قَالَ جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى –: «كَانُوا إِذَا صَلَّوُا الْعِيدَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: تَقَبَّلَ اللهُ مِنَّا وَمِنْكُمْ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، إِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَفْرَحَ بِهَذَا الْعِيدِ، وَأَنْ يَكُونَ هَذَا الْفَرَحُ مَضْبُوطًا بِشَرِيعَةِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –؛ فَلَا

يَكُونُ فَرَحُهُ ذَلِكَ دَاعِيًا لَهُ إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَ حُدُودَ الشَّرْعِ؛ فَلَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُسْبِلَ ثِيَابَهُ، وَلَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَسْمَعَ الْأَغَانِيَ الْمَاجِنَةَ، أَوْ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى أَفْلَامٍ خَلِيعَةٍ، أَوْ أَفْلَامٍ تَبُثُّ كُلَّ سُوءٍ وَفَسَادٍ؛ بَلْ وَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحْمَدَ اللهَ فِي هَذَا الْعِيدِ، وَأَنْ يَسْأَلَ اللهَ – تَعَالَى – الْمَزِيدَ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَنْ يَسْأَلَ اللهَ – تَعَالَى – أَنْ يَعُمَّهُ بِعَفْوِهِ وَفَضْلِهِ.

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ عَلِمْتُمْ جَمِيعًا أَنَّ غَدًا يَوْمُ عَرَفَةَ، وَقَدِ اسْتَحَبَّ الشَّارِعُ لِلنَّاسِ فِي الْأَمْصَارِ غَيْرِ الْحُجَّاجِ أَنْ يَصُومُوا هَذَا الْيَوْمَ؛ تَقَرُّبًا لِلهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –.

يَقُولُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: «صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ إِنِّي أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ بِهِ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالسَّنَةَ الْمُقْبِلَةَ»، يَعْنِي مَا يَقَعُ فِيهِمَا مِنْ صَغِيرِ الذُّنُوبِ دُونَ كَبِيرِهِ؛ لِأَنَّ الْكَبَائِرَ يُشْتَرَطُ لَهَا التَّوْبَةُ.

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ كَثُرَ الْحَدِيثُ عَنْ تَعَدُّدِ الْأَضَاحِي مِنْ قِبَلِ النَّاسِ؛ فَأَكْثَرَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ وَتَكَلَّمُوا.

وَإِنَّ تَجْلِيَةَ الْمَسْأَلَةِ يَكُونُ فِي أَنَّ الْأُضْحِيَّةَ الْأَصْلُ فِي مَشْرُوعِيَّتِهَا لِلْحَيِّ، وَيَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُضَحِّيَ عَنِ الْأَمْوَاتِ؛ لِأَنَّ

عِنْدَنَا – مَعْشَرَ الْحَنَابِلَةِ – أَنَّ مَنْ عَمِلَ قُرْبَةً وَنَوَى ثَوَابَهَا لِمَيِّتٍ بَلَغَهُ ذَلِكَ الثَّوَابُ، وَهَذَا هُوَ أَصَحُّ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

وَلْيَكُنِ الْمُسْلِمُ حَرِيصًا عَلَى تَطْبِيقِ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَيُضَحِّي عَنْ نَفْسِهِ أَوَّلًا، ثُمَّ عَمَّنْ شَاءَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ أَوْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَلَا حَصْرَ لِلْأَضَاحِي؛ فَمَنْ كَانَ مُوسِرًا وَأَرَادَ أَنْ يُضَحِّيَ بِعَشَرَاتِ الْأَضَاحِي فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ مَحْمُودٌ؛ لِأَنَّ اللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – يُحِبُّ إِرَاقَةَ الدِّمَاءِ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ، وَمَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ يَوْمَ النَّحْرِ عَمَلًا أَحَبَّ إِلَى اللهِ – جَلَّ وَعَلَا – مِنْ إِرَاقَةِ دَمٍ، وَنَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذَبَحَ مِنَ الْهَدْيِ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ يَكْفِيهِ سُبْعُ بَدَنَةٍ؛ وَلَكِنَّهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – رَأَى الْأَفْضَلَ، وَاسْتَحَبَّ الْإِكْثَارَ مِنْ إِرَاقَةِ الدِّمَاءِ؛ تَعْظِيمًا لِلهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –.

فَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى شَاةٍ وَاحِدَةٍ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ – أَحْيَاءً كَانُوا أَوْ أَمْوَاتًا – فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَقَدْ وَافَقَ فِعْلَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَمَنْ زَادَ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ مُصِيبٌ لِعُمُومِ السُّنَّةِ الْقَوْلِيَّةِ عَنْهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –.

أَمَّا مَا شَوَّشَ بِهِ بَعْضُ الْأَغْمَارِ فِي بَعْضِ الصُّحُفِ مِنْ أَنَّ الْوَصَايَا الَّتِي كَتَبَهَا الْأَمْوَاتُ يُطَالِبُونَ فِيهَا مَنْ بَعْدَهُمْ بِتَنْفِيذِ وَصَايَاهُمْ وَفِي هَذِهِ الْوَصَايَا ذَبْحُ أَكْثَرَ مِنْ أُضْحِيَّةٍ.. فَإِنَّ هَذِهِ الْوَصَايَا يَجِبُ أَنْ تُنَفَّذَ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّهَا لَا تُنَفَّذُ؛ لِأَنَّهَا عَمَلٌ غَيْرُ مَشْرُوعٍ.. فَقَدْ ضَلَّ السَّبِيلَ، وَقَالَ غَيْرَ الْحَقِّ؛ فَوَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَلْتَزِمَ بِالْوَصَايَا الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْأَمْوَاتِ: ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ [البقرة: ١٨١].

فَاتَّقُوا اللهَ، وَاحْفَظُوا الْوَصَايَا، وَلَا تُغَيِّرُوا فِيهَا شَيْئًا، وَلَا تَنْخَدِعُوا بِمَنْ لَيْسَ مَعْرُوفًا بِالْعِلْمِ وَالتَّحْرِيرِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، لَقَدْ أَفْرَحَنَا جَمِيعًا نَبَأُ الْقَبْضِ عَلَى تِلْكَ الْعِصَابَةِ الْآثِمَةِ الَّتِي قَامَتْ بِالتَّفْجِيرِ فِي هَذَا الْبَلَدِ الْمُبَارَكِ الطَّاهِرِ، وَإِنَّ هَذَا النَّبَأَ لَيَدْعُونَا جَمِيعًا أَنْ نَتَضَرَّعَ إِلَى اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – بِالشُّكْرِ عَلَى مَا تَفَضَّلَ بِهِ وَأَنْعَمَ.

ثُمَّ نَشْكُرُ رِجَالَ الْأَمْنِ الْقَائِمِينَ عَلَى أَمْنِ وَاسْتِقْرَارِ هَذَا الْبَلَدِ بِمَا بَذَلُوهُ مِنْ جُهْدٍ عَظِيمٍ حَتَّى تَوَصَّلُوا – بِتَوْفِيقِ اللهِ وَفَضْلِهِ – إِلَى

أُولَئِكَ الْجُنَاةِ؛ يَقُولُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: «لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ».

فَاحْمَدُوا اللهَ – جَلَّ وَعَلَا – عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَحَافِظُوا عَلَى أَمْنِكُمْ وَاسْتِقْرَارِكُمْ، وَاسْأَلُوا اللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – أَنْ يَدْفَعَ عَنْكُمْ كُلَّ بَلِيَّةٍ وَسُوءٍ.

الْخُطْبَةُ الْخَامِسَةُ: أَسْبَابُ فَسَادِ الْقُلُوبِ

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ أَوْلَى مَا اهْتَمَّ الْمُسْلِمُ بِهِ وَرَعَاهُ وَحَفِظَهُ مِنَ الْخَرَابِ وَالدِّمَاءِ: قَلْبُهُ.

قَلْبُهُ الَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ الصَّلَاحُ وَالْفَسَادُ، وَإِلَيْهِ يَنْظُرُ رَبُّ الْعِبَادِ؛ فَ«إِنَّ اللهَ – جَلَّ جَلَالُهُ – لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ؛ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»؛ فَإِذَا صَلَحَ قَلْبُكَ – أَيُّهَا الْمُسْلِمُ – صَلَحَ عَمَلُكَ، وَإِنْ فَسَدَ فَسَدَ عَمَلُكَ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – فِي قَوْلِهِ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ: الْقَلْبُ».

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ، إِنَّ لِلْقَلْبِ مُفْسِدَاتٍ إِذَا وُجِدَتْ فِيهِ أَوْرَدَتْهُ الْمَهَالِكَ، وَأَبْعَدَتْهُ وَطَرَدَتْهُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –؛ فَوَاجِبُ كُلِّ شَخْصٍ مِنَّا أَنْ يَعْرِفَ هَذِهِ الْمُفْسِدَاتِ، وَأَنْ يُلِمَّ بِهَا؛ لِيَجْتَنِبَهَا وَيَحْذَرَهَا أَشَدَّ الْحَذَرِ.

فَمُفْسِدَاتُ الْقَلْبِ خَمْسَةٌ، هِيَ: التَّعَلُّقُ بِغَيْرِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –، وَالتَّمَنِّي، وَالْخُلْطَةُ، وَالشِّبَعُ، وَالنَّوْمُ.

فَهَذِهِ الْمُفْسِدَاتُ لَا بُدَّ وَأَنْ يَعْرِفَهَا الْمُسْلِمُ، وَأَنْ يُحِيطَ بِهَا؛ لِيَكُونَ أَشَدَّ النَّاسِ اجْتِنَابًا لَهَا؛ لِيَسْلَمَ لَهُ قَلْبُهُ؛ فَيَصْلُحَ عَمَلُهُ – بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى –.

فَالتَّعَلُّقُ بِغَيْرِ اللهِ – جَلَّ جَلَالُهُ – أَسَاسُ الشِّرْكِ بِاللهِ – جَلَّ وَعَلَا –، وَهُوَ بَابُ كُلِّ شَرٍّ يَلِجُ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُ وَيَدْخُلُهُ؛ فَمَنْ تَعَلَّقَ بِغَيْرِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى مَنْ تَعَلَّقَ بِهِ؛ فَاسْتَحْكَمَتْ هَلَكَتُهُ عِنْدَئِذٍ.

فَرَاعِ قَلْبَكَ: لَا يَتَعَلَّقَنَّ بِغَيْرِ اللهِ فِي جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ؛ تَكُنْ مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمُخْلِصِينَ، وَإِذَا زَاغَ قَلْبُكَ عَنِ اللهِ فَتَعَلَّقَ بِغَيْرِهِ – تَعَالَى –؛ وَقَعْتَ فِي الْإِشْرَاكِ؛ فَلْتَسْتَقِلَّ أَوْ لِتَسْتَكْثِرْ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ.

وَالْمُفْسِدُ الثَّانِي مِنْ مُفْسِدَاتِ الْقَلْبِ: التَّمَنِّي؛ وَهُوَ أَنْ يَهِيمَ الْقَلْبُ فِي أَوْدِيَةِ الْخَطَرَاتِ وَالْوَسَاوِسِ، وَيَتَمَنَّى مَا لَا يَصِلُ إِلَيْهِ عَمَلُهُ الْحَالِيُّ.

وَهَذَا خَطَرُهُ عَظِيمٌ عَلَى فِكْرِ الْمُسْلِمِ وَعَلَى دِينِهِ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمَ مَتَى اسْتَرْسَلَ مَعَ التَّمَنِّيَاتِ؛ أُصِيبَ بِأَمْرَاضٍ نَفْسِيَّةٍ لَا حَصْرَ لَهَا، وَلَمْ يَسْتَطِعِ التَّخَلُّصَ مِنْهَا إِلَّا بَعْدَ مَشَقَّةٍ وَجُهْدٍ.

وَلِذَا؛ فَإِنَّ اللهَ – جَلَّ وَعَلَا – لَمْ يُعَلِّقِ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ عَلَى التَّمَنِّي وَالْأُمْنِيَّاتِ؛ وَإِنَّمَا عَلَّقَهَا عَلَى الْأَعْمَالِ؛ فَقَالَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

فَالْمَسْأَلَةُ لَيْسَتْ تَمَنٍّ؛ بَلْ هِيَ عَمَلٌ يُعْرَضُ عَلَى اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –، فَإِنْ كَانَ صَالِحًا؛ فَنِعِمَّا لَكَ، وَإِنْ كَانَ فَاسِدًا؛ فَأَجْبَرَ اللهُ عَزَاءَكَ؛ مَا أَشَدَّ مُصِيبَتَكَ، وَمَا أَعْظَمَ خَسَارَتَكَ!

إِنَّ الشَّيْطَانَ – يَا عِبَادَ اللهِ – يَحْرِصُ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى أَنْ يَغْمُرَ الْمُسْلِمَ فِي أَوْدِيَةِ التَّمَنِّي؛ لِيُلْهِيَهُ عَنِ الْعَمَلِ الْجَادِّ، سَوَاءٌ فِي أُمُورِ دِينِهِ أَوْ فِي أُمُورِ دُنْيَاهُ.

وَلِذَا؛ ثَبَتَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا رَكِبَ أَحَدُكُمْ قَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ: تَغَنَّ. فَإِنْ لَمْ يَتَغَنَّ؛ قَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ: تَمَنَّ»، يَعْنِي أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا رَكِبَ فِي دَابَّتِهِ أَوْ سَيَّارَتِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَسَلَّطُ عَلَيْهِ؛ لِيَشْغَلَهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، وَعَنْ مَا يُفِيدُهُ فِي دِينِهِ وَدِينِهِ؛ فَيَقُولُ لَهُ: تَغَنَّ. فَإِذَا لَمْ يَجِدْ حِيلَةً فِي هَذَا الرَّجُلِ فِي بَابِ التَّغَنِّي؛ أَوْلَجَهُ فِي بَابٍ آخَرَ أَسْوَأَ مِنَ التَّغَنِّي؛ وَهُوَ التَّمَنِّي، فَإِذَا هَامَ فِي أَوْدِيَتِهِ؛ ضَيَّعَ عَمَلَ الدُّنْيَا وَعَمَلَ الْآخِرَةِ.

وَهَذَا الْمَرَضُ النَّفْسِيُّ الدِّينِيُّ انْتَشَرَ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ انْتِشَارًا وَاسِعًا لَا نِطَاقَ لَهُ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَسَدَتِ الْقُلُوبُ – عَافَانَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ –؛ فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَجْتَنِبَ هَذِهِ التَّمَنِّيَاتِ، وَلْيُحَقِّقْ مَا يَخْطُرُ فِي بَالِهِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُزَكِّيهِ عِنْدَ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وَتَرْفَعُهُ مَنَازِلَ. فَهَذَا مِنْ مُفْسِدَاتِ الْقَلْبِ.

وَمِنْ مُفْسِدَاتِ الْقَلْبِ – أَيْضًا –: كَثْرَةُ الْخُلْطَةِ مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ؛ فَإِنَّ مُخَالَطَةَ النَّاسِ إِذَا جَاوَزَتِ الْحَدَّ الْمَعْهُودَ عَقْلًا وَشَرْعًا؛ فَإِنَّهَا تَعُودُ عَلَى الْقَلْبِ بِإِفْسَادٍ، وَلِذَا؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حَذَّرَ مِنْ كَثْرَةِ الْخُلْطَةِ، وَنَهَى عَنْهَا، وَبَيَّنَ مَا تَجْنِيهِ عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ مَفَاسِدَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ.

وَلْيَجْعَلِ الْمُسْلِمُ النَّاسَ أَقْسَامًا فِي الْخُلْطَةِ؛ فَمِنَ النَّاسِ: مَنْ خُلْطَتُهُمْ كَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ؛ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ حَيٌّ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ، وَالْمُذَكِّرُونَ بِاللهِ – جَلَّ وَعَلَا –، الَّذِينَ يَحُثُّونَكَ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَيَنْهَوْنَكَ عَنْ كُلِّ شَرٍّ، فَهَؤُلَاءِ لَا غِنَى لِلْمُسْلِمِ عَنْ مُخَالَطَتِهِمْ، وَالِانْتِفَاعِ مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، وَاجْتِنَاءِ أَطَايِبِ أَثْمَارِ كَلَامِهِمْ كَمَا يُجْتَبَى الشَّهْدُ وَالْعَسَلُ. فَهَذَا قِسْمٌ مِنَ النَّاسِ.

وَقِسْمٌ آخَرُ: مَنْ خُلْطَتُهُ كَالدَّوَاءِ؛ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْمَرَضِ وَالْأَلَمِ، فَإِذَا زَالَ الْمَرَضُ وَالْأَلَمُ لَمْ يُحْتَجْ إِلَى هَذَا الدَّوَاءِ؛ وَهَؤُلَاءِ أَرْبَابُ الدُّنْيَا، وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ، الَّذِينَ لَا غِنَى لِلْمُسْلِمِ عَنْهُمْ فِي حَيَاتِهِ؛ فَهُوَ يُخَالِطُهُمْ لِأَجْلِ مَصَالِحِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَإِذَا انْقَضَتْ فَعَلَيْهِ أَنْ يُقْلِعَ عَنْ مُخَالَطَتِهِمْ؛ لِأَنَّ الِاسْتِزَادَةَ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ تَجْنِي فَسَادَ الْقَلْبِ.

وَقِسْمٌ ثَالِثٌ مِنَ النَّاسِ: مَنْ خُلْطَتُهُمُ الْمَوْتُ الْمُحَقَّقُ، بِمَثَابَةِ السُّمِّ فِي الطَّعَامِ؛ وَهَؤُلَاءِ أَصْحَابُ السُّوءِ، وَأَهْلُ الْمَنَاهِجِ الْمُنْحَرِفَةِ، الَّذِينَ يُبْعِدُونَ الْمُسْلِمَ عَنْ رَبِّهِ – جَلَّ وَعَلَا –، وَيُدْنُونَهُ مِنْ كُلِّ فِعْلٍ قَبِيحٍ خَبِيثٍ.

فَاجْتَنِبْ – عَبْدَ اللهِ – كَثْرَةَ الْمُخَالَطَةِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، وَخُذْ مِنَ الْمُخَالَطَةِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ، وَلَا تَزِدْ فِيهَا؛ فَتَتَرَاكَمَ عَلَيْكَ الْآثَامُ، وَتَجْتَمِعَ عَلَيْكَ الْمَصَائِبُ.

مَاذَا يَجْنِي النَّاسُ مِنْ كَثْرَةِ الْخُلْطَةِ إِلَّا الْوُقُوعَ فِي الْغِيبَةِ، وَالنَّمِيمَةِ، وَالْكَلَامِ فِيمَا لَا يَخُصُّهُمْ شَرْعًا؟!

فَاحْذَرُوهَا – عِبَادَ اللهِ –، وَكُونُوا مِنْهَا عَلَى تَقِيَّةٍ؛ فَإِنَّ الْمَقَاتِلَ إِنَّمَا يُصِيبُهَا الشَّيْطَانُ كَثِيرًا بِسَبَبِ التَّفْرِيطِ فِي الْخُلْطَةِ.

لِقَاءُ النَّاسِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئًا سِوَى الْهَذَيَانِ مِنْ قِيلٍ وَقَالِ

فَأَقْلِلْ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إِلَّا لِأَخْذِ الْعِلْمِ أَوْ إِصْلَاحِ حَالِ

فَهَذَا مِنْ مُفْسِدَاتِ الْقَلْبِ.

وَمِنْ مُفْسِدَاتِهِ – أَيْضًا –: كَثْرَةُ الشِّبَعِ؛ فَإِنَّ الشَّارِعَ جَعَلَ لِلْمُسْلِمِ ثُلُثًا لِطَعَامِهِ، وَثُلُثًا لِشَرَابِهِ، وَثُلُثًا لِنَفَسِهِ؛ لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ بَالِغَةٍ؛ أَلَا وَهِيَ: أَنَّ الشَّيْطَانَ يَتَكَلَّمُ عَلَى الْمُسْلِمِ بِالشِّبَعِ؛ فَيُورِدُهُ الْمَهَالِكَ، وَلِذَا؛ أَمَرَ الشَّارِعُ أَنْ نُضَيِّقَ مَجَارِيَهُ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَكَلَ أَكْلًا كَثِيرًا فَاقَ الْحَدَّ الَّذِي يَحْتَاجُهُ عَادَ ذَلِكَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِفْسَادِ.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ يَوْمًا لِزَكَرِيَّا – عَلَيْهِ السَّلَامُ –، فَقَالَ لَهُ زَكَرِيَّا: «هَلْ نِلْتَ مِنِّي خَيْرًا قَطُّ؟!». قَالَ: «نَعَمْ؛ قُرِّبَ إِلَيْكَ الطَّعَامُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَشَهَّيْتُهُ لَكَ؛ فَأَكَلْتَ مِنْهُ حَتَّى شَبِعْتَ؛ فَنِمْتَ عَنْ وِرْدِكَ». فَقَالَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: «لِلهِ عَلَيَّ أَنْ لَا أَشْبَعَ مِنْ طَعَامٍ أَبَدًا». ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ – فِي (مَدَارِجِ السَّالِكِينَ).

فَاجْتَنِبُوا هَذِهِ الْمُفْسِدَاتِ الَّتِي إِذَا طَرَأَتْ عَلَى الْقُلُوبِ أَبْعَدَتْهَا مِنَ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا –، وَقَرَّبَتْهَا مِنَ الشَّيْطَانِ – عَافَانَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَلِيَّةٍ –.

وَمِنَ الْمُفْسِدَاتِ الَّتِي لَمْ نَذْكُرْهَا – أَيْضًا –: كَثْرَةُ النَّوْمِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ تُفْسِدُ الْقَلْبَ؛ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنِ السَّلَفِ الصَّالِحِ – رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُمْ –، وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَاجَةَ أَنَّ سُلَيْمَانَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – قَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: «يَا بُنَيَّ، لَا تُكْثِرِ النَّوْمَ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ تَدَعُ الْعَبْدَ فَقِيرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»؛ لِأَنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ تَقْطَعُ الْمُسْلِمَ عَنِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَتَقْطَعُهُ عَنْ أَعْمَالِ دُنْيَاهُ الَّتِي يَسْتَفِيدُ بِهَا فِيهَا؛ فَالنَّوْمُ كَثْرَتُهُ لَا تَجْلِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ إِلَّا سُوءًا عَلَى كُلِّ

الْأَحْوَالِ؛ فَاجْتَنِبُوا الزَّائِدَ مِنْهُ – بَارَكَ اللهُ فِيكُمْ –؛ يَسْلَمْ لَكُمْ قَلْبُكُمْ، وَتَسْعَدُوا دِينًا وَأُخْرَى.

عِبَادَ اللهِ، عَلِمْتُمْ فِيمَا سَبَقَ مُفْسِدَاتِ الْقَلْبِ؛ فَمَا هِيَ مُصْلِحَاتُهُ؟

مُصْلِحَاتُهُ كَثِيرَةٌ جِدًّا؛ فَالْمُسْلِمُ إِذَا تَوَقَّى تِلْكَ الْمُفْسِدَاتِ فَإِنَّ الْجَوَّ أَمَامَهُ خَالٍ لِعِمَارَةِ قَلْبِهِ بِطَاعَةِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وَذِكْرِهِ.

وَمِمَّا يُصْلِحُ الْقَلْبَ: كَثْرَةُ ذِكْرِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – فِي كُلِّ حِينٍ وَآوِنَةٍ.

وَلِذَا؛ أَمَرَ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – بِذِكْرِهِ فِي أَشَدِّ الْأَحْوَالِ وَأَصْعَبِهَا؛ وَهُوَ حَالُ الْتِحَامِ الصُّفُوفِ فِي الْحَرْبِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

فَأَكْثِرْ – عَبْدَ اللهِ – مِنْ ذِكْرِ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا –؛ يَسْلَمْ قَلْبُكَ وَيَصْلُحْ، وَتَخِفَّ عَلَيْكَ الطَّاعَاتُ، وَتَثْقُلْ عَلَيْكَ الْمَعَاصِي؛ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ كَثُرَتْ عَلَيَّ؛ فَأَرْشِدْنِي إِلَى عَمَلٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ. فَقَالَ

– عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –».

الْخُطْبَةُ السَّادِسَةُ: إِفْشَاءُ السَّلَامِ

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ إِفْشَاءَ السَّلَامِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَمْرٌ اسْتَحَبَّهُ الشَّارِعُ، وَدَعَا إِلَيْهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ كَثِيرًا؛ فَهُوَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَمَرَ بِإِفْشَاءِ السَّلَامِ، وَجَعَلَ إِفْشَاءَ السَّلَامِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ.

يَقُولُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطِيبُوا الْكَلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ؛ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ».

وَإِنَّ إِفْشَاءَ السَّلَامِ لَهُ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ؛ مِنْهَا: إِحْيَاءُ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَامْتِثَالُ أَمْرِهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ إِفْشَاءَ السَّلَامِ عَلَامَةُ قُوَّةِ إِيمَانِ صَاحِبِهِ؛ يَقُولُ الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: «بَابٌ: إِفْشَاءُ السَّلَامِ مِنَ الْإِسْلَامِ؛ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ

جَمَعَ الْإِيمَانَ: الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ».

وَفِي إِفْشَاءِ السَّلَامِ: نَفْيُ صِفَةِ الْبُخْلِ الْوَارِدَةِ فِي قَوْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «وَأَبْخَلُ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلَامِ».

وَفِي إِفْشَاءِ السَّلَامِ - أَيْضًا -: أَنَّهُ إِرْغَامٌ لِأَنْفِ الْيَهُودِ، وَإِظْهَارٌ لِسَخَطِ قُلُوبِهِمْ؛ يَقُولُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ».

وَفِي إِفْشَاءِ السَّلَامِ - أَيْضًا -: أَدَاءٌ لِلْحَقِّ الَّذِي فَرَضَهُ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَلَى الْمُسْلِمِ لِلْمُسْلِمِ؛ يَقُولُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ:... وَإِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ».

وَفِي إِفْشَاءِ السَّلَامِ: تَحْصِيلُ الصَّدَقَةِ الْوَارِدَةِ فِي قَوْلِهِ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ -: «عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنِ ابْنِ آدَمَ صَدَقَةٌ؛... وَتَسْلِيمُكَ عَلَى النَّاسِ صَدَقَةٌ».

وَفِي إِفْشَاءِ السَّلَامِ - أَيْضًا -: إِرْضَاءُ اللهِ - تَعَالَى -، وَإِكْمَالُ الْإِيمَانِ، وَدُخُولُ الْجَنَّةِ، وَفُشُوُّ الْمَحَبَّةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ؛ يَقُولُ -

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «لَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا؛ أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ: أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ».

وَفِي إِفْشَاءِ السَّلَامِ - أَيْضًا -: نَيْلُ الْمَرْءِ الثَّوَابَ الْمُرَتَّبَ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عِنْدَمَا جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ». فَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «عَشْرٌ». ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ». فَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «عِشْرُونَ». فَجَاءَ آخَرُ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ». فَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «ثَلَاثُونَ».

أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ، هَذِهِ بَعْضُ الْفَوَائِدِ الْمُرَتَّبَةِ عَلَى إِفْشَاءِ السَّلَامِ؛ فَكَيْفَ يَلِيقُ بِمُسْلِمٍ أَنْ يَعْزِفَ عَنْهُ وَأَنْ يَرْغَبَ عَنْهُ؟!

إِنَّ الرَّاغِبَ عَنْهُ قَدْ فَرَّطَ فِي خَيْرٍ كَثِيرٍ، وَضَيَّعَ عَلَى نَفْسِهِ ثَوَابًا عَظِيمًا.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَخُصُّ السَّلَامَ بِمَنْ يَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ، وَهَذَا خَطَأٌ مَحْضٌ نَهَى عَنْهُ الشَّارِعُ، وَأَمَرَ أَنْ يَكُونَ السَّلَامُ عَامًّا لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ «مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»، وَإِنَّ السَّلَامَ «عَلَى الْمَعْرِفَةِ» لَمِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ، إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ - هَدَاهُمُ اللهُ - إِذَا سَلَّمَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ لَمْ يَرُدُّوا السَّلَامَ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ وَقَعُوا فِي إِثْمٍ عَظِيمٍ، وَتَحَمَّلُوا أَمْرًا كَبِيرًا؛ سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ - رَحِمَهُ اللهُ - عَنْ رَجُلٍ مَرَّ بِجَمَاعَةٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَقَالَ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: «لِيُعَجِّلْ بِالْمَسِيرِ؛ لِئَلَّا تَلْحَقَهُ اللَّعْنَةُ مَعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ»؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ أَجْمَعَتْ عَلَى أَنَّ ابْتِدَاءَ السَّلَامِ سُنَّةٌ، وَأَنَّ رَدَّهُ وَاجِبٌ؛ لِقَوْلِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦].

عِبَادَ اللهِ، الشَّارِعُ الْحَكِيمُ جَعَلَ آدَابًا لِلِابْتِدَاءِ بِالسَّلَامِ؛ مِنْ أَهَمِّهَا: أَنَّ الْكَثِيرَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ الْقَلِيلُ، وَأَنَّ الْكَبِيرَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ الصَّغِيرُ، وَأَنَّ الرَّاكِبَ يُسَلِّمُ عَلَى الْمَاشِي، وَأَنَّ الْمَاشِيَ يُسَلِّمُ عَلَى الْقَاعِدِ.

فَالْتَزِمُوا بِهَذِهِ الْآدَابِ وَاعْرِفُوهَا؛ تَظْفَرُوا بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

عِبَادَ اللهِ، فَإِنَّهُ يُجْزِئُ عَنِ الْجَمَاعَةِ إِذَا سَلَّمَ عَلَيْهِمْ شَخْصٌ أَنْ يَرُدَّ مِنْهُمْ وَاحِدٌ، وَيُجْزِئُ مِنَ الْجَمَاعَةِ إِذَا مَرُّوا عَلَى آخَرِينَ أَنْ يُسَلِّمَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ؛ كَمَا ثَبَتَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

وَيُكْرَهُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُسَلِّمَ بِالْإِشَارَةِ؛ لِأَنَّهَا تَسْلِيمُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ كَمَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَى الصِّبْيَانِ؛ لِفِعْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -.

فَحَافِظُوا - رَحِمَكُمُ اللهُ - عَلَى هَذِهِ الشَّعِيرَةِ مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، وَاهْتَمُّوا بِهَا؛ لِيَسُودَ الْوِئَامُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلِتَرْتَفِعَ الشَّحْنَاءُ وَالْبَغْضَاءُ.

الْخُطْبَةُ السَّابِعَةُ: التَّحْذِيرُ مِنَ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ نَهَانَا رَبُّنَا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَنِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ، وَحَذَّرَنَا مِنْ ذَلِكَ تَحْذِيرًا شَدِيدًا؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - حَدَّ لَنَا حُدُودًا، وَشَرَعَ لَنَا شَرَائِعَ، وَهُوَ يُحِبُّ مِنَّا أَنْ لَا نَزِيدَ عَلَى هَذِهِ وَلَا نَنْقُصَ مِنْهَا شَيْئًا.

وَلِذَا؛ فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - شَرَعَ لَنَا أَنْ نَقْرَأَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ (سُورَةَ الْفَاتِحَةِ)، وَفِيهَا هَذِهِ الْآيَاتُ الْعَظِيمَةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ • اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ • صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٥-٧]، وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ لِلْمُسْلِمِ وَتَحْذِيرٌ لَهُ؛ تَنْبِيهٌ لَهُ أَنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَمَسْلَكَ الضَّالِّينَ، وَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ هُمُ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَتَرَكُوهُ - كَالْيَهُودِ وَنَحْوِهِمْ -، وَالضَّالُّونَ هُمُ الَّذِينَ عَبَدُوا اللهَ - جَلَّ جَلَالُهُ - عَلَى جَهْلٍ - كَالنَّصَارَى وَنَحْوِهِمْ -.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، لَقَدْ نَهَى اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْغُلُوِّ فِي دِينِهِ، وَنَهْيُهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِأَهْلِ الْكِتَابِ لَيْسَ خَاصًّا بِهِمْ؛ بَلْ هُوَ عَامٌّ لَهُمْ وَلِكُلِّ مَنْ أَتَى بَعْدَهُمْ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

وَقَدْ جَاءَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُحَذِّرًا مِنَ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، مِنْ أَظْهَرِهَا قَوْلُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ»، وَذَكَرَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عَاقِبَةَ الْغَالِينَ فِي الدِّينِ فَقَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ».

فَنَحْنُ أُمَّةٌ وَسَطٌ، أَمَرَنَا اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَنْ نَسْتَقِيمَ عَلَى أَمْرِهِ الَّذِي شَرَعَهُ - تَعَالَى -؛ كَمَا قَالَ - جَلَّ جَلَالُهُ - مُخَاطِبًا نَبِيَّهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]؛ فَالشَّرْعُ لَمْ يُوكَلْ إِلَى عُقُولِنَا، وَلَا إِلَى أَهْوَائِنَا؛ بَلْ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُنَا حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

وَتَأَمَّلُوا كَثِيرًا قِصَّةَ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ جَاؤُوا إِلَى أَزْوَاجِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَسَأَلُوا عَنْ عِبَادَةِ رَسُولِ اللهِ، فَكَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا؛ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: «أَصُومُ وَلَا أُفْطِرُ». وَقَالَ الْآخَرُ: «أَقُومُ اللَّيْلَ وَلَا أَنَامُ». وَقَالَ الثَّالِثُ: «لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا آكُلُ اللَّحْمَ». فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأُخْبِرَ عَنْ حَدِيثِ أُولَئِكَ النَّفَرِ قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي؛ فَلَيْسَ مِنِّي».

إِذَنْ؛ فَالشَّرْعُ وَحْيٌ مُنَزَّلٌ مِنَ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، لَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَزِيدَ فِيهِ شَيْئًا أَوْ يَنْقُصَ؛ بَلْ إِنَّ عَمَلَهُ لَا يُقْبَلُ عِنْدَ اللهِ - جَلَّ جَلَالُهُ - إِلَّا إِذَا تَوَفَّرَ فِيهِ شَرْطَانِ:

الْأَوَّلُ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وَإِرَادَةُ وَجْهِ اللهِ بِهَذَا الْعَمَلِ؛ كَمَا قَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وَالثَّانِي: الْمُتَابَعَةُ لِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

وَلِذَا؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ التَّعَبُّدِ وَكَثْرَةَ التَّنَسُّكِ لَا تُغْنِي عَنِ الْمَرْءِ شَيْئًا إِذَا لَمْ يَكُنْ تَنَسُّكُهُ وَتَعَبُّدُهُ وَفْقًا لِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَلِذَا فَإِنَّ النَّصَارَى ابْتَدَعُوا رَهْبَانِيَّةً جَعَلُوهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَا كَتَبَهَا اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَلَيْهِمْ، وَلِذَا؛ لَمْ يَقْبَلِ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - مِنْهُمْ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا.

وَأُحِبُّ كَثِيرًا أَنْ يَتَأَمَّلَ الْمُسْلِمُ قِصَصَ الْخَوَارِجِ الَّتِي جَاءَتْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ لِيَعْلَمَ يَقِينًا أَنَّ مَنْ تَعَبَّدَ اللهَ - جَلَّ وَعَلَا - عَلَى غَيْرِ هَدْيِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَإِنَّ عَمَلَهُ بَاطِلٌ؛ فَلَا يُغْتَرُّ بِهِ، وَلَا يُنْخَدَعُ بِهِ، مَهْمَا جَلَبَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ مَظَاهِرِ التَّدَيُّنِ وَالْعِبَادَةِ.

يَقُولُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَمَا فِي حَدِيثِ أَنَسٍ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي (مُسْنَدِهِ): «سَيَأْتِي قَوْمٌ يَتَعَبَّدُونَ وَيَدِينُونَ،

حَتَّى يُعْجِبُوا النَّاسَ وَتُعْجِبُهُمْ أَنْفُسُهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ».

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَخْرَجَهَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَالَ: «قَوْمٌ يُحْسِنُونَ الْقِيلَ، وَيُسِيئُونَ الْفِعْلَ، يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ عِنْدَ صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ أَوْ قَتَلُوهُ، يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَلَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ».

هَكَذَا يُحَدِّثُنَا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ تِلْكَ الْفِرْقَةِ الْمَارِقَةِ، لِمَ ذَلِكَ؟ لِأَنَّهُمْ تَعَبَّدُوا عَلَى غَيْرِ هَدْيِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَعَلَى غَيْرِ سُنَّتِهِ؛ فَضَلُّوا ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وَلِذَا؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ اعْتَرَضُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ فَقَالَ قَائِلُهُمْ: «اعْدِلْ يَا - مُحَمَّدُ -»!! فَقَالَ: «وَيْلَكَ! مَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟!». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ عِنْدَ صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ».

ثُمَّ جَاءَ قَرْنٌ آخَرُ لَهُمْ؛ فَخَرَجُوا عَلَى عُثْمَانَ ذِي النُّورَيْنِ، وَقَتَلُوهُ زَاعِمِينَ أَنَّهُ كَافِرٌ بِاللهِ الْعَظِيمِ!!

وَاقْرَؤُوا قِصَّةَ قَتْلِهِ فِي (الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ) لِابْنِ كَثِيرٍ؛ لِتَرَوْا شُؤْمَ مَا عَلَيْهِ هَذَا الْقَوْمُ؛ حَيْثُ أَنَّهُمْ قَتَلُوا خَلِيفَةَ خَلِيفَةِ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللهِ؛ زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ!!! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ خَرَجُوا عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، وَيَا لَيْتَ شِعْرِي! بِمَا اتَّهَمُوهُ؟!

اتَّهَمُوهُ بِأَنَّهُ لَا يَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ اللهِ!! اتَّهَمُوهُ أَنَّهُ يُبْعِدُ كِتَابَ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا - فِي حُكْمِهِ وَتَدْبِيرِهِ!!!

وَوَاللهِ مَا صَدَقُوا. وَلِذَا؛ فَإِنَّ عَلِيًّا - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - تَحَمَّسَ لِقِتَالِهِمْ، وَتَشَدَّدَ فِي ذَلِكَ، وَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ أَنَّ مَنْ قَتَلَهُمْ أَوْ قَتَلُوهُ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ؛ بِشَهَادَةِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

ثُمَّ إِنَّهُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - لَمْ يَرْضَ أَنْ يُقَاتِلَهُمُ ابْتِدَاءً؛ بَلْ بَعَثَ إِلَيْهِمُ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَكَشَفَ شُبْهَتَهُمْ، وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ

وَهُدًى، وَأَنَّهُمْ قَدْ تَمَسَّكُوا بِبَعْضِ الظَّوَاهِرِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَهِيَ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا؛ إِذْ لَمْ يَفْقَهُوهَا، وَلَمْ يَعْرِفُوا مُرَادَ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مِنْهَا، فَمَا اقْتَنَعَ مِنْهُمْ إِلَّا يَسِيرٌ.

ثُمَّ نَاقَشَهُمْ هُوَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - بِنَفْسِهِ، فَلَمَّا رَأَى ضَلَالَهُمْ وَإِصْرَارَهُمْ؛ قَاتَلَهُمْ؛ فَمَزَّقَهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ.

فَتَأَمَّلُوا - عِبَادَ اللهِ - هَذِهِ الْحَوَادِثَ، وَانْظُرُوا إِلَيْهَا بِعَيْنِ الِاعْتِبَارِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْغُلُوَّ وَالتَّشَدُّدَ فِي الدِّينِ هُوَ الَّذِينَ يَقُودُ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ.

فَالْمُسْلِمُ يَكُونُ عَلَى الْوَسَطِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْإِسْلَامُ، لَا يَزِيدُ عَمَّا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَا يَنْقُصُ شَيْئًا، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ تَعَبَّدَ بِتَعَبُّدٍ عَظِيمٍ فَأَنْفَقَ عُمْرَهُ فِيهِ وَأَنْفَقَ مَالَهُ فِيهِ فَإِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُ هَذَا التَّعَبُّدُ شَيْئًا حَتَّى يَكُونَ تَعَبُّدُهُ وَفْقًا لِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

أَلَا تَقْرَؤُونَ قَوْلَ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ • عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ • تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢-٤]؟! فَهِيَ وُجُوهٌ تَعْمَلُ وَتَدْأَبُ وَتَسْعَى وَتَتَعَبَّدُ، وَلَكِنْ مَا مَصِيرُهَا؟! وَمَا عَاقِبَتُهَا؟!

{تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً}، هَذِهِ الْآيَةُ تَأَوَّلَهَا عَلِيٌّ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ - فِي الْخَوَارِجِ.

وَمِنْ هُنَا؛ فَإِنَّنَا نَقُولُ لِلنَّاسِ عُمُومًا: إِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ تَظَاهَرَ بِالدِّينِ وَتَسَمَّى بِالتَّدَيُّنِ فَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ حَقًّا؛ بَلْ أَهْلُ التَّدَيُّنِ هُمُ الَّذِينَ يُوَافِقُونَ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي كُلِّ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَلَا يَزِيدُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ؛ «فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ».

الْخُطْبَةُ الثَّامِنَةُ: الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ فُقْدَانَ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ دَاءٌ بُلِيَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ دَاءٌ خَطِيرٌ؛ يُمِيتُ الْقَلْبَ، وَيَصْرِفُهُ عَنِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -؛ ذَلِكَ أَنَّ الْخُشُوعَ هُوَ أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنْ

هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي (مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ) عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ -.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ الصَّلَاةَ لَهَا حُرْمَتُهَا، وَلَهَا قَدْرُهَا، رَتَّبَ الشَّارِعُ عَلَيْهَا فَضَائِلَ كَثِيرَةً؛ فَهِيَ كَفَّارَةٌ لِلذُّنُوبِ، وَهِيَ نُورٌ لِلْعَبْدِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَهِيَ صِلَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ يُنْزِلُ حَاجَتَهُ لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَنْ طَرِيقِهَا.

وَإِنَّ هَذِهِ الْفَضَائِلَ لَا تَحْصُلُ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُمْ يُفَرِّطُونَ فِي الْخُشُوعِ فِيهَا.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا؛ إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهَا، مَا لَمْ تُؤْتَ كَبِيرَةٌ، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ».

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يُؤَدُّونَ الصَّلَاةَ، وَلَكِنْ لَا تَنْهَاهُمْ صَلَاتُهُمْ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ضَيَّعُوا الْخُشُوعَ فِيهَا.

وَلَقَدْ حَثَّ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - عَلَى الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ، وَأَمَرَ بِهِ، وَرَتَّبَ عَلَى فِعْلِهِ أَجْرًا كَبِيرًا؛ كَمَا قَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ • الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، فَبَدَأَ بِأَوَّلِ صِفَةٍ - وَهِيَ الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ -؛ لِعِظَمِهَا، وَلِكَبِيرِ قَدْرِهَا.

وَانْظُرْ - يَا عَبْدَ اللهِ - فِي صَلَاةِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ لِتَرَى كَمَالَ الْهَدْيِ فِيهَا؛ فَإِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الشِّخِّيرِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يَقُولُ: «جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ يُصَلِّي، وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ؛ مِنَ الْبُكَاءِ».

وَلَمَّا مَرِضَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ؛ إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ. قَالَ: مُرُوهُ فَلْيُصَلِّ».

وَثَبَتَ أَنَّ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - [كَانَ] يُسْمَعُ نَسِيجُهُ مِنْ بَيْنِ الصُّفُوفِ وَهُوَ يَقْرَأُ (سُورَةَ يُوسُفَ).

ذَلِكَ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُمْ يَتَلَذَّذُونَ بِالصَّلَاةِ، وَيَرْكُضُونَ إِلَيْهَا إِذَا حَزَبَتْهُمُ الْأُمُورُ، ذَلِكَ هُوَ الَّذِينَ جَعَلَهُمْ يُحِبُّونَ الصَّلَاةَ حُبًّا جَمًّا؛

فَيَرَوْنَهَا أَسْعَدَ لَحَظَاتِ حَيَاتِهِمْ.

يَقُولُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَمَا فِي (الْمُسْنَدِ) بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ: «يَا بِلَالُ، أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ».

وَيَقُولُ كَمَا فِي (السُّنَنِ) وَ(الْمُسْنَدِ) بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

فَإِلَى أُولَئِكَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مِنْ صَلَاتِهِمْ أَوْدِيَةً لِلْخَطَرَاتِ وَالْوَسَاوِسِ وَالتَّفْكِيرَاتِ، وَالنَّظَرِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْمَلْذُوذَاتِ، إِلَى أُولَئِكَ نَقُولُ: رُوَيْدًا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَلَقَدْ خَسِرْتُمْ كَثِيرًا، وَفَرَّطْتُمْ فِي أَجْرٍ كَبِيرٍ.

يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا -: «مَا لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ إِلَى مَا عَقَلْتَ».

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي سُنَّةِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ يَقُولُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَمَا فِي (سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ) وَغَيْرِهِ بِإِسْنَادٍ لَا بَأْسَ بِهِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا عُشْرُهَا، إِلَّا تُسْعُهَا، إِلَّا ثُمْنُهَا، إِلَّا سُبْعُهَا، إِلَّا سُدْسُهَا، إِلَّا رُبْعُهَا، إِلَّا ثُلُثُهَا، إِلَّا نِصْفُهَا».

فَمَا حَالُكَ - يَا عَبْدَ اللهِ - إِذَا كَانَ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - قَدْ كَتَبَ لَكَ مِنْ ثَوَابِ هَذِهِ الصَّلَاةِ الْعُشْرَ؟!

لَا شَكَّ أَنَّكَ مَغْبُونٌ، وَأَنَّكَ مُفَرِّطٌ.

عِبَادَ اللهِ، تَعْلَمُونَ مَنْ تُقَابِلُونَ فِي هَذِهِ الصَّلَاةِ؟

إِنَّكُمْ تُقَابِلُونَ اللهَ - تَعَالَى -، إِنَّكُمْ تُقَابِلُونَ مَلِكَ الْمُلُوكِ؛ فَبِئْسَ مِنْ رَجُلٍ يُقَابِلُ اللهَ - جَلَّ وَعَلَا - ثُمَّ يَنْصَرِفُ عَنِ اللهِ يَمِينًا وَشِمَالًا؛ أَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا - جَلَّ وَعَلَا - إِذَا كَبَّرَ أَحَدُنَا تَكْبِيرَةَ الْإِحْرَامِ نَصَبَ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ، حَتَّى يَلْتَفِتَ الْعَبْدُ مِنْ صَلَاتِهِ، عِنْدَئِذٍ يَنْصَرِفُ اللهُ عَنْهُ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ خَلَّى اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ؛ فَأَفْسَدَ صَلَاتَهُ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ إِذَا دَخَلَ عَلَى الْمُلُوكِ، أَوِ الْأُمَرَاءِ، أَوْ عَلَى مُدِيرِهِ فِي دَائِرَتِهِ - عَظَّمَهُ، وَأَصْغَى إِلَيْهِ، وَخَشَعَ فِي حَضْرَتِهِ؛ فَلَا تَمَايُلَ، وَلَا انْصِرَافَ، وَلَا خَطَرَاتِ؛ بَلْ يُظْهِرُ لِهَذَا الْمَسْؤُولِ أَنَّهُ مُهْتَمٌّ بِأَمْرِهِ، مُعْتَنٍ بِمَا يَقُولُهُ.. فَكَيْفَ لَا يَفْعَلُ الْمُسْلِمُ ذَلِكَ مَعَ رَبِّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَهُوَ مَلِكُ الْمُلُوكِ، الْمُطَّلِعُ عَلَى مَا تُخْفِيهِ الضَّمَائِرُ وَالصُّدُورُ؟!

فَيَا - عِبَادَ اللهِ -، اتَّقُوا اللهَ - جَلَّ وَعَلَا - فِي صَلَاتِكُمْ، وَارْعَوُا الْخُشُوعَ فِيهَا، وَاجْلِبُوا مَا يُرَقِّقُ قُلُوبَكُمْ فِي التَّفَكُّرِ فِيمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ، وَفِيمَا تَتَلَفَّظُونَ مِنْ أَذْكَارٍ فِي الصَّلَاةِ؛ فَإِذَا قَالَ الْمُسْلِمُ: (اللهُ أَكْبَرُ) تَأَمَّلَ مَعْنَاهَا قَلِيلًا؛ فَوَجَدَهَا أَنَّ اللهَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، أَكْبَرُ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنْ زَخَارِفَ وَشَهَوَاتٍ؛ عِنْدَئِذٍ يُوحِي إِلَيْهِ ذَلِكَ أَنْ لَا يَلْتَفِتَ عَنْ هَذَا الْكَبِيرِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

يَتَأَمَّلُ الْمُسْلِمُ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْعِبَرِ وَالْعِظَاتِ، هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي لَوْ أُنْزِلَ عَلَى جَبَلٍ لَتَصَدَّعَ وَتَلَاشَى مِنْ عِظَمِ هَذَا الْقُرْآنِ، فَمَا بَالُ قُلُوبِنَا - يَا عِبَادَ اللهِ - أَصْبَحَتْ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً؟!

إِنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْنَا مُرَاجَعَةُ أَنْفُسِنَا، وَالنَّظَرُ فِي حَالِ صَلَاتِنَا؛ كَمْ مِنْ مُصَلٍّ لَا تَنْفَعُهُ صَلَاتُهُ نَفْعًا كَبِيرًا؟! كَمْ مِنْ مُصَلٍّ لَا تَكُونُ صَلَاتُهُ نُورًا لَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ؟! كَمْ مِنْ مُصَلٍّ لَا تَنْهَاهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ؟!

فَإِلَى أُولَئِكَ الْمُصَابِينَ بِدَاءِ فَقْدِ الْخُشُوعِ نَقُولُ: إِنَّ هَذَا الدَّاءَ لَهُ شِفَاءٌ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

وَمِنْ أَعْظَمِ الشِّفَاءِ: مَا ثَبَتَ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، أَنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ دُونِي وَدُونَ صَلَاتِي؛ فَلَا أَعْلَمُ مَا قِرَاءَتِي مَا صَلَاتِي. فَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خِنْزَبٌ؛ فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ؛ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهِ، وَانْفُثْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْتِيكَ. قَالَ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ؛ فَأَذْهَبَهُ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - عَنِّي».

فَمَا عَلَيْكَ - يَا عَبْدَ اللهِ - إِذَا تَسَلَّطَ عَلَيْكَ الشَّيْطَانُ وَأَرَادَ أَنْ يَصْرِفَكَ عَنْ لَذَّةِ الْمُنَاجَاةِ مَعَ رَبِّكَ فِي هَذِهِ الصَّلَاةِ إِلَّا أَنْ تَلْتَجِأَ وَتَحْتَمِيَ - بِمَنْ؟ - بِمَلِكِ الْمُلُوكِ - مِمَّنْ؟ - مِنْ أَحْقَرِ عِبَادِهِ وَأَذَلِّهِمْ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ فَتَقُولَ: (أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) اسْتِعَاذَةً صَادِرَةً مِنَ الْقَلْبِ؛ لِيَتَقَبَّلَهَا اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

الْخُطْبَةُ الثَّاسِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْأَلِيمَةِ

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ اللهَ - تَعَالَى - يَبْتَلِي عِبَادَهُ بِالْمَصَائِبِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، لَا لِيُهْلِكَهُمْ بِهَا؛ وَإِنَّمَا لِيَمْتَحِنَ صَبْرَهُمْ

وَعُبُودِيَّتَهُمْ؛ فَإِنَّ لِلَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - عَلَى عِبَادِهِ عُبُودِيَّةً فِي الضَّرَّاءِ، كَمَا أَنَّ لَهُ عَلَيْهِمْ عُبُودِيَّةً فِي السَّرَّاءِ، وَلَهُ عَلَيْهِمْ - تَعَالَى - عُبُودِيَّةٌ فِيمَا يَكْرَهُونَ، كَمَا لَهُ - جَلَّ وَعَلَا - عُبُودِيَّةٌ عَلَيْهِمْ فِيمَا يُحِبُّونَ.

فَالْمُؤْمِنُ كَامِلُ الْإِيمَانِ الَّذِي يُوقِنُ بِلِقَاءِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا - يَتَّخِذُ الصَّبْرَ سِلَاحًا يُوَاجِهُ بِهِ كُلَّ بَلِيَّةٍ وَقَعَتْ بِهِ؛ لِتَكُونَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى خَيْرٍ، وَلِتَنْقَلِبَ الْمِحْنَةُ فِي حَقِّهِ إِلَى مِنْحَةٍ، وَلِتَسْتَحِيلَ الْبَلِيَّةُ فِي حَقِّهِ إِلَى عَطِيَّةٍ.

وَحَقِيقَةُ الصَّبْرِ - يَا عِبَادَ اللهِ -: أَنْ يَحْبِسَ الْمُسْلِمُ النَّفْسَ عَنِ التَّسَخُّطِ بِالْمَقْدُورِ، وَأَنْ يَحْبِسَ اللِّسَانَ عَنِ الشَّكْوَى، وَأَنْ يَحْبِسَ الْأَرْكَانَ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الْمَعْصِيَةِ - كَاللَّطْمِ، وَشَقِّ الثَّوْبِ، وَنَتْفِ الشَّعْرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ -.

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] أَيْ: يُعْطَوْنَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ عَدَدٍ وَلَا مِقْدَارٍ؛ لِعَظِيمِ مَا قَامُوا بِهِ مِنْ عَمَلِ خَيْرٍ وَبِرٍّ مُسْتَحْسَنٍ.

وَيَقُولُ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ

الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، فَهُوَ - تَعَالَى - يُخْبِرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ سُنَّتِهِ فِي عِبَادِهِ؛ وَهِيَ ابْتِلَاؤُهُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ، وَلَمْ يَقُلْ: (بِخَوْفٍ)؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ: (بِخَوْفٍ) لَأَهْلَكَهُمْ؛ وَإِنَّمَا يَبْتَلِيهِمْ ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾؛ لِأَنَّ مَقْصُودَهُ - تَعَالَى - تَمْحِيصُهُمْ وَتَطْهِيرُهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ.

﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾: إِمَّا بِالْفَقْرِ، وَإِمَّا بِتَلَفِ الْأَمْوَالِ، وَتَلَفِ التِّجَارَاتِ.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ﴾ أَيْ: بِذَهَابِ الْأَحْبَابِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ وَالْأَصْحَابِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ: أَنْوَاعُ الْمَرَضِ الَّذِي يَحِلُّ بِبَدَنِ الْعَبْدِ، أَوْ يَحِلُّ بِبَدَنِ مَنْ يُحِبُّ.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ أَيْ: الْحُبُوبُ، وَثِمَارُ الْمَحْصُولِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا - فِي عِبَادِهِ: يَبْتَلِيهِمْ بِصُنُوفٍ مِنَ الْبَلَاءِ.

وَهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ جَازِعٌ، وَقِسْمٌ رَاضٍ.

أَمَّا الْجَازِعُ فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ إِلَى نَفْسِهِ مُصِيبَتَيْنِ عَظِيمَيْنِ؛ الْأُولَى: فَوَاتُ الْمَحْبُوبِ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِ فِي الْمُصِيبَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا رَادَّ لَهَا إِلَّا اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَحْدَهُ. وَالثَّانِيَةُ: فَوَاتُ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي رَتَّبَهُ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - لِلصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي مِنَ النَّاسِ؛ فَهُمُ الصَّابِرُونَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - عَنْهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أَيْ: بَشِّرْهُمْ بِأَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلَا - يُعْطِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ عَدَدٍ وَبِغَيْرِ مِقْدَارٍ؛ جَزَاءً لَهُمْ عَلَى عَظِيمِ مَا قَامُوا.

ثُمَّ وَصَفَ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - هَؤُلَاءِ الصَّابِرِينَ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ أَيْ: نَحْنُ مَمْلُوكُونَ لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، مُدَبَّرُونَ تَحْتَ عَوْنِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ؛ فَإِذَا أَوْقَعَ بِنَا مُصِيبَةً - وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ - فَقَدْ تَصَرَّفَ بِحِكْمَةٍ فِينَا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -؛ فَلَا يَتَسَخَّطُونَ، وَلَا يَتَذَمَّرُونَ؛ وَإِنَّمَا يَصْبِرُونَ.

فَالْجَزَاءُ هَاهُنَا جَزَاءٌ عَظِيمٌ؛ قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أَيْ: ثَنَاءٌ عَطِرٌ، وَتَمْجِيدٌ لِمَا قَامُوا بِهِ مِنْ فِعْلٍ مَحْمُودٍ. ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾:

رَحْمَةٌ عَظِيمَةٌ؛ ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]: الْمُوَفَّقُونَ لِلْحَقِّ فِي بَابِ الْمَصَائِبِ.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ الْحَقَّ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ فِي السَّرَّاءِ وَفِي الضَّرَّاءِ، أَتَعْجَبُونَ مِنْ ذَلِكَ؟!

لَقَدْ عَجِبَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ».

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ حِكَمِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا - فِي ابْتِلَاءِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا: أَنْ يُكَفِّرَ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - عَنْهُمْ ذُنُوبَهُمْ وَخَطَايَاهُمْ، أَوْ أَنْ يَرْفَعَ دَرَجَاتِهِمْ فِي عِلِّيِّينَ.

يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا - أَيْ: مِنَ الْحُمَّى الَّتِي أَصَابَتْهُ -، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا. فَقَالَ: نَعَمْ؛ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَلِكَ بِأَنَّ لَكَ أَجْرًا؟ قَالَ: أَجَلْ؛ ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ

مُصِيبَةٌ شَوْكَةٌ فَمَا دُونَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، وَحُطَّتْ عَنْهُ بِهَا خَطَايَاهُ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا».

وَجَاءَ فِي (التِّرْمِذِيِّ) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُسْلِمِ حَتَّى يَدَعَهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ».

فَعَلَيْنَا جَمِيعًا - يَا عِبَادَ اللهِ - أَنْ نَنْظُرَ فِي الْمَصَائِبِ بِهَذِهِ النَّظْرَةِ الْمُؤْمِنَةِ؛ فَلَا شَكَّ أَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلَا - خَالِقُنَا وَرَازِقُنَا، وَأَنَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا، وَمَا أَصَابَنَا بِمُصِيبَةٍ إِلَّا لِصَالِحٍ لَنَا - دِينًا أَوْ دُنْيَا -.

وَنَعْلَمُ كَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مُصِيبَةٍ تُصِيبُنَا إِنَّمَا هِيَ قَضَاءٌ وَقَدَرٌ لَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِهِ؛ ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

فَإِذَا عَلِمَ الْمُؤْمِنُ ذَلِكَ وَغَيْرَهُ؛ تَحَمَّلَ الْمَصَائِبَ، وَتَقَبَّلَهَا بِصَدْرٍ رَحْبٍ. لَكِنَّ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ يَضِيقُ ذَرْعًا، وَتَضِيقُ عَلَيْهِ الدُّنْيَا بِمَا رَحُبَتْ؛ لِأَنَّهُ لَا يَلْجَأُ إِلَى اللهِ، وَلَا يَتَّجِهُ إِلَيْهِ؛ فَخَابَ وَخَسِرَ - وَالْعِيَاذُ بِاللهِ -.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا ابْتَلَاهُمُ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - بِبَعْضِ الْأَمْرَاضِ - لَاسِيَّمَا الْخَبِيثَةِ كَالسَّرَطَانِ وَنَحْوِهَا - ضَاقُوا ذَرْعًا، وَأَعْيَتْهُمْ تِلْكَ الْمُصِيبَةُ عَنِ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللهِ - جَلَّ وَعَلَا -؛ فَهَامَ بِهِمُ الشَّيْطَانُ فِي كُلِّ وَادٍ؛ يَتَذَكَّرُونَ الْأَوْلَادَ وَالْأَمْوَالَ، وَيَبْكُونَ عَلَيْهِمْ، وَيَنْدُبُونَ حَظَّهُمْ فِي فِرَاقِهِمْ.

وَمَا عَلِمَ أُولَئِكَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ مُصِيبَةٌ أَرْسَلَهَا اللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ إِلَيْهِمْ؛ عَلَّهُمْ يَتُوبُونَ إِلَيْهِ، عَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، عَلَّهُمْ يُنِيبُونَ إِلَيْهِ.

فَلْيَسْتَأْنِسِ الْمُسْلِمُ بِهَذِهِ الْمَصَائِبِ وَنَحْوِهَا، وَلْيَعْلَمْ أَنَّهَا مِنَ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا؛ يُصِبْ مِنْهُ»؛ فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا فَإِنَّ اللهَ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ يُرِيدُ أَنْ يَرْفَعَ دَرَجَاتِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا فَإِنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ يُرِيدُ مِنْهُ أَنْ يَتُوبَ، أَوْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ إِلَى اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ.

فَتَأَمَّلُوا هَذَا الْمَلْحَظَ الْيَسِيرَ، وَاسْتَخْرِجُوا مَوْقِفًا مِنْهُ مَعَ الْمَصَائِبِ الَّتِي تَحُلُّ بِكُمْ؛ تَكُونُ هَذِهِ الْمَصَائِبُ خَيْرًا لَكُمْ، وَرَاحَةً لِأَنْفُسِكُمْ، وَمَنْ جَرَّبَ عَرَفَ.

الْخُطْبَةُ الْعَاشِرَةُ:

الْمَوْرِدُ الصَّبَّابُ فِي الْمُحَرَّمِ مِنَ الثِّيَابِ

عِبَادَ اللهِ، لَقَدِ امْتَنَّ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ عَلَى عِبَادِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ اللِّبَاسِ وَالرِّيشِ الَّذِي يُوَارُونَ بِهِ عَوْرَاتِهِمْ، وَيَتَجَمَّلُونَ بِهِ فِي مَجَامِعِهِمْ وَمَحَافِلِهِمْ؛ فَقَالَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[الأعراف: ٢٦].

فَاللِّبَاسُ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ تَفَضَّلَ اللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ بِهَا عَلَى الْإِنْسَانِ، فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْفَوَائِدِ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ؛ فَهُوَ سِتْرٌ يَسْتُرُ بِهِ الْإِنْسَانُ سَوْءَتَهُ، وَهُوَ جَمَالٌ لَهُ وَبَهَاءٌ، وَهُوَ ـ أَيْضًا ـ وِقَاءٌ لَهُ مِنَ الْحَرِّ وَمِنَ الْبَرْدِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ أَيْ: قُمْصًا.. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾[النحل: ٨١].

فَوَاجِبُ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ شُكْرُهَا، وَالثَّنَاءُ عَلَى اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ بِهَا.

وَشُكْرُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِاسْتِعْمَالِ مَا أَحَلَّهُ اللهُ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . مِنْهَا، وَاجْتِنَابِ مَا حَرَّمَهُ اللهُ . تَبَارَكَ وَتَعَالَى . مِنْهَا؛ فَإِنَّ رَبَّنَا . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . جَعَلَ مِنَ اللِّبَاسِ أَشْيَاءَ مُحَرَّمَةً، وَجَعَلَ مِنَ اللِّبَاسِ أَشْيَاءَ مُبَاحَةً.

فَيَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْرِفَ ذَلِكَ، وَأَنْ يُلِمَّ بِهِ؛ لِيُتْبِعَهُ بِالْعَمَلِ؛ فَيَسْتَخْدِمَ الْمُبَاحَ، وَيَجْتَنِبَ الْمُحَرَّمَ.

الْأَصْلُ فِي الْأَلْبِسَةِ . يَا عِبَادَ اللهِ . الْإِبَاحَةُ؛ كَمَا قَالَ اللهُ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . مُنْكِرًا عَلَى مَنْ حَرَّمَ أَشْيَاءَ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[الأعراف: ٣٢]؛ فَكُلُّ الْأَلْبِسَةِ حَلَالٌ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَلْبَسَهَا إِلَّا مَا جَاءَ الشَّرْعُ بِتَحْرِيمِهِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ؛ فَهَذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ فِي الْمَلَابِسِ.

وَنَحْنُ نَذْكُرُ جُمْلَةً مِنَ الْمَلَابِسِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللهُ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . عَلَى عِبَادِهِ؛ لِيَجْتَنِبَهَا الْمُسْلِمُ اجْتِنَابًا كَامِلًا؛ امْتِثَالًا لِقَوْلِ النَّبِيِّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .: «وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ؛ فَاجْتَنِبُوهُ».

فَمِنَ الْمَلَابِسِ الْمُحَرَّمَةِ: تِلْكَ الْمَلَابِسُ الْمُخْتَصَّةُ بِالْكُفَّارِ، وَالَّتِي لَا يَلْبَسُهَا سِوَاهُمْ؛ فَهِيَ عَلَمٌ عَلَيْهِمْ، وَشِعَارٌ لَهُمْ.

يَقُولُ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»، التَّشَبُّهُ بِالْكُفَّارِ فِي مَلَابِسِهِمْ يُنَافِي الْعِزَّةَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُ؛ إِذْ أَنَّ التَّشَبُّهَ بِهِمْ يَعْنِي شُعُورَ الْمُتَشَبِّهِ أَنَّهُمْ أَعْلَى مِنَّا، كَمَا يَعْنِي ـ أَيْضًا ـ إِعْجَابَهُ بِهَيْئَاتِهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ، وَهَذِهِ خُطْوَةٌ أُولَى لِلْإِعْجَابِ بِعَقَائِدِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ ـ عَافَانَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ ذَلِكَ ـ.

وَمِنَ الْأَلْبِسَةِ الْمُحَرَّمَةِ ـ أَيْضًا ـ: لُبْسُ الرِّجَالِ مَا يَخْتَصُّ بِالنِّسَاءِ مِنَ الْمَلَابِسِ، وَلُبْسُ النِّسَاءِ مَا يَخْتَصُّ بِالرِّجَالِ مِنَ الْمَلَابِسِ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ شَامِلًا لِلْجِسْمِ كُلِّهِ أَوْ لِعُضْوٍ مِنْهُ ـ كَالْحِذَاءِ وَنَحْوِهِ ـ؛ فَقَدْ «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ»، وَثَبَتَ فِي (سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ».

وَمِنَ الْأَلْبِسَةِ الْمُحَرَّمَةِ: لُبْسُ الْحَرِيرِ عَلَى الذُّكُورِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ خَاصَّةً دُونَ النِّسَاءِ؛ فَقَدْ ثَبَتَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّهُ قَالَ: «لَا

تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ؛ فَإِنَّ مَنْ لَبِسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ»، وَقَالَ: «إِنَّمَا يَلْبَسُ الْحَرِيرَ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ».

وَإِذَا نُسِجَ الْحَرِيرُ مَعَ غَيْرِهِ ـ كَقُطْنٍ وَكَتَّانٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ـ كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَلَابِسِ الرِّجَالِ الْيَوْمَ؛ فَيُنْظَرُ: فَإِنْ كَانَتْ نِسْبَةُ الْحَرِيرِ كَبِيرَةً فَوْقَ النِّصْفِ فَلَا يَجُوزُ لُبْسُ هَذِهِ الْمَلَابِسِ؛ تَغْلِيبًا لِلْحَرِيرِ، وَتَغْلِيبًا لِلْحُرْمَةِ. وَإِنْ كَانَتْ نِسْبَةُ الْحَرِيرِ قَلِيلَةً ـ كَكَوْنِهَا أَقَلَّ مِنَ النِّصْفِ ـ فَيَجُوزُ اتِّخَاذُ هَذِهِ الْمَلَابِسِ؛ لِأَنَّهَا لَا تُسَمَّى حَرِيرًا عِنْدَئِذٍ.

وَمَلَابِسُ الْحَرِيرِ الْمُحَرَّمَةُ عَلَى الرِّجَالِ تَشْمَلُ: الثِّيَابَ، وَالسَّرَاوِيلَ، وَالْغُتْرَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْمَلَابِسِ؛ فَهِيَ لَيْسَتْ مُخْتَصَّةً بِالثَّوْبِ الْمَعْرُوفِ فَحَسْبُ؛ بَلْ بِكُلِّ لِبَاسٍ يَلْبَسُهُ الرَّجُلُ.

وَمِنَ الْأَلْبِسَةِ الْمُحَرَّمَةِ: لُبْسُ مَا فِيهِ صُورَةُ حَيَوَانٍ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ امْتَنَعَ مِنْ دُخُولِ بَيْتِ عَائِشَةَ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ فِيهِ تَصَاوِيرَ، وَأَخْبَرَ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ أَنَّ «الْمَلَائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ».

وَلَقَدْ بُلِيَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بِالْمَلَابِسِ الَّتِي فِيهَا صُوَرُ حَيَوَانٍ، لَاسِيَّمَا فِي مَلَابِسِ الْأَطْفَالِ، وَهِيَ رَزِيَّةٌ عَظِيمَةٌ،

وَمُصِيبَةٌ كَبِيرَةٌ، مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ تَدْخُلَ الْمَلَائِكَةُ بَيْتَهُ، وَأَنْ تَبْتَعِدَ الشَّيَاطِينُ مِنْ بَيْتِهِ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ بِهَذِهِ الصُّوَرِ، وَأَنْ يَطْمِسَهَا، وَأَنْ يُطَهِّرَ بَيْتَهُ مِنْهَا.

وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّ الصَّبِيَّ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْهِ؛ فَإِذَا أُلْبِسَ هَذِهِ الْمَلَابِسَ الَّتِي فِيهَا الصُّوَرُ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ عِنْدَئِذٍ.

وَهَذَا كَلَامٌ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ فَإِنَّ الْفُقَهَاءَ . رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى . يَقُولُونَ: يَحْرُمُ إِلْبَاسُ صَبِيٍّ مَا يَحْرُمُ عَلَى الرَّجُلِ لِبْسُهُ . كَالْحَرِيرِ، وَمَنْتُوجِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .؛ وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ . رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . عَنِ الْحَرِيرِ: «كُنَّا نَنْزِعُهُ عَنِ الْغِلْمَانِ»، وَثَبَتَ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ . رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُمَا . أَنَّهُمَا كَانَا يُمَزِّقَانِهِ إِذَا رَأَوْهُ عَلَى صَبِيٍّ.

فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَجْتَنِبَ شِرَاءَ الثِّيَابِ الَّتِي فِيهَا صُورَةٌ، وَعَلَيْهِ أَنْ يُخْرِجَهَا مِنْ بَيْتِهِ إِنْ كَانَ فِي بَيْتِهِ مِنْهَا شَيْءٌ، أَوْ عَلَيْهِ أَنْ يَطْمِسَ وَجْهَ الصُّورَةِ الَّتِي فِيهَا مَلَابِسُ الْأَطْفَالِ عَلَى وَجْهٍ لَا يُفْسِدُ الثَّوْبَ، كَأَنْ يَأْخُذَ قِطْعَةَ قُمَاشٍ مُنَاسِبَةً لِشَكْلِ الثَّوْبِ فَيَطْمِسَ بِهِ وَجْهَ الصُّورَةِ، أَوْ يَأْخُذَ بَعْضَ الْأَزْرَارِ الْجَمَالِيَّةِ

فَيَضَعَهَا عَلَى وَجْهِ الصُّورَةِ؛ لِيَسْتَفِيدَ مِنَ الثَّوْبِ، وَلِيَسْلَمَ مِنْ مَغَبَّةِ الْحُرْمَةِ.

عِبَادَ اللهِ، وَمِنَ اللِّبَاسِ الْمُحَرَّمِ عَلَى الرِّجَالِ خَاصَّةً: لُبْسُ مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ، مِنْ ثَوْبٍ، أَوْ سَرَاوِيلَ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ كَعَبَاءَةٍ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ حَرَّمَ هَذَا الْأَمْرَ، وَشَدَّدَ النَّكِيرَ عَلَيْهِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ «مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فَفِي النَّارِ».

وَبَعْضُ النَّاسِ يُفَرِّقُ بَيْنَ إِسْبَالِ الثِّيَابِ خُيَلَاءَ وَبَيْنَ إِسْبَالِهَا لِغَيْرِ الْخُيَلَاءِ، وَهَذَا الْقَوْلُ ـ وَإِنْ كَانَ قَوْلًا لِبَعْضِ الْفُقَهَاءِ إِلَّا أَنَّهُ ـ قَوْلٌ مَرْجُوحٌ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ إِسْبَالَ الثَّوْبِ أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ مِنْ غَيْرِ خُيَلَاءَ مَعْصِيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ، وَأَنَّ إِسْبَالَ الثَّوْبِ تَحْتَ الْكَعْبَيْنِ خُيَلَاءَ مَعْصِيَةٌ أُخْرَى مُسْتَقِلَّةٌ؛ بِدَلِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ فِي لَفْظٍ وَاحِدٍ، وَفَرَّقَ بَيْنَهَا بِتَفْرِيقِ الْعِقَابِ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا؛ يَقُولُ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ؛ فَفِي النَّارِ، وَمَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ؛ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ»؛ فَعُقُوبَةُ الْأُولَى: النَّارُ، وَعُقُوبَةُ الثَّانِيَةِ: عَدَمُ نَظَرِ الْمَوْلَى ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ إِلَيْهِ.

فَاجْتَنِبُوا الْإِسْبَالَ فِي الثِّيَابِ ـ عِبَادَ اللهِ ـ وَاحْذَرُوهُ أَشَدَّ الْحَذَرِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ جَعَلَهُ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ فِي قَوْلِهِ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ أَبُو ذَرٍّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ ـ يَا رَسُولَ اللهِ ـ؟ قَالَ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبَةِ».

فَهَذِهِ ـ يَا عِبَادَ اللهِ ـ صُوَرٌ مِنَ الْأَلْبِسَةِ الْمُحَرَّمَةِ، اجْتَنِبُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، وَاجْتَنِبُوهَا فِي أَهْلِيكُمْ؛ فَحَذِّرُوا مَنْ رَأَيْتُمْ مِنْ أَقَارِبِكُمْ وَجِيرَانِكُمْ يَسْتَخْدِمُهَا ـ حَذِّرُوهُ ـ مِنِ اسْتِخْدَامِهَا وَاسْتِعْمَالِهَا؛ حَتَّى نَكُونَ قَدْ أَدَّيْنَا شُكْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي خَصَّنَا اللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ بِهَا دُونَ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ.

الْخُطْبَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ:

الْيَمِينُ الْغَمُوسُ

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ الْيَمِينَ بِاللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ شَأْنُهَا عَظِيمٌ، وَخَطْبُهَا جَسِيمٌ؛ فَهِيَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ كَلِمَةٍ يَتَلَفَّظُ بِهَا الْمُسْلِمُ

فَحَسْبُ؛ بَلْ هِيَ عَهْدٌ وَمِيثَاقٌ يَقِفُ عِنْدَهُ الْمُسْلِمُ، وَيَلْتَزِمُهُ، وَلَا يَتَعَدَّاهُ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ بِحِفْظِ الْيَمِينِ فِي قَوْلِهِ ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة: ٨٩] أَيْ: بِتَرْكِ الْحَلِفِ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ.

وَعَلَى هَذَا؛ فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ لَا يَتَسَرَّعَ فِي الْيَمِينِ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ الْمُلِحَّةِ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ كَثْرَةَ الْأَيْمَانِ تَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ تَعْظِيمِ الْمَحْلُوفِ بِهِ مِنْ قِبَلِ الْحَالِفِ، كَمَا أَنَّ كَثْرَةَ الْأَيْمَانِ سِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ؛ كَمَا قَالَ اللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[القلم: ١٠]، وَالْحَلَّافُ هُوَ كَثِيرُ الْحَلِفِ.

وَفِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ ـ أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ ـ كَثُرَ الْحَلِفُ بِاللهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَلْسِنَةِ النَّاسِ، وَهَذِهِ ظَاهِرَةُ سُوءٍ تَنُمُّ عَنْ ضَعْفِ الدِّيَانَةِ وَقِلَّةِ الْوَرَعِ ـ عَافَانَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ ـ.

فَمِنَ الصُّوَرِ الَّتِي يَكْثُرُ فِيهَا الْحَلِفُ بِاللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ: الْحَلِفُ بِهِ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ عِنْدَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَقَدْ قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّ الْحَلِفَ عِنْدَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ مَكْرُوهٌ إِذَا كَانَ الْبَائِعُ وَالْمُشْتَرِي صَادِقَيْنِ، أَمَّا إِذَا كَانَا كَاذِبَيْنِ فَإِنَّهُ مُحَرَّمٌ تَحْرِيمًا شَدِيدًا يَقُولُ ـ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . فِيهِ: «إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلِفِ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ؛ فَإِنَّهُ يُنَفِّقُ ثُمَّ يَمْحَقُ».

وَفِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . أَنَّ النَّبِيَّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ: «الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ»؛ فَالْحَلِفُ فِي الْبَيْعِ يُرَوِّجُ السِّلْعَةَ وَيَزِيدُ فِي ثَمَنِهَا، وَلَكِنَّ هَذِهِ الزِّيَادَةَ نُقْصَانٌ، وَهَذَا التَّرْوِيجُ خُسْرَانٌ؛ إِذْ أَنَّ الْبَرَكَةَ قَدْ نُزِعَتْ مِنْ هَذَا الْمَالِ الَّذِي قَدْ صَارَ إِلَيْكَ مِنْ قِبَلِ هَذَا الْحَلِفِ بِاللهِ . جَلَّ وَعَلَا ، وَإِذَا نُزِعَتِ الْبَرَكَةُ مِنَ الْمَالِ؛ فَلَا خَيْرَ فِيهِ، وَإِنْ كَثُرَ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى مَنِ اسْتَعْمَلَ الْحَلِفَ فِي بَيْعِهِ وَشِرَائِهِ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . أَنَّ النَّبِيَّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ» وَذَكَرَ مِنْهُمْ: «رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَتِهِ لَقَدْ أُعْطِيَ بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أُعْطِيَ وَهُوَ كَاذِبٌ».

وَثَبَتَ فِي (الطَّبَرَانِيِّ) وَغَيْرِهِ عَنْ سَلْمَانَ . رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ . أَنَّ النَّبِيَّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ،

وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ سِلْعَتَهُ؛ لَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ».

فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ، وَأَنْ يَتَحَاشَا مِنَ الْيَمِينِ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ. فَإِنِ اضْطُرَّ إِلَيْهَا فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَحَرَّى الصِّدْقَ وَالْأَمَانَةَ، وَأَنْ يَتَّقِيَ اللهَ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ فِيهِ، [وَالسِّلْعَةُ] أَخَسُّ مِنْ أَنْ يُجْعَلَ فِيهَا الْيَمِينُ بِاللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ مُنَفِّقًا لَهَا.

وَمِنَ الصُّوَرِ أَيْضًا الَّتِي كَثُرَ فِيهَا الْحَلِفُ عِنْدَ النَّاسِ: تِلْكَ الْأَيْمَانُ الَّتِي تَكُونُ عِنْدَ التَّقَاضِي وَالْخُصُومَاتِ فِي الْمَحَاكِمِ؛ فَإِنَّ الْخَصْمَ يَحْلِفُ بِاللهِ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ كَاذِبًا؛ لِيَكْسِبَ الْقَضِيَّةَ وَيَفُوزَ بِهَا دُونَ خَصْمِهِ، دُونَ مُبَالَاةٍ بِحُرْمَةِ الْيَمِينِ، بَلْ جَرَاءَةً عَلَى اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَقَدْ وَرَدَ الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَتَجَرَّأَ عَلَيْهِ؛ يَقُولُ اللهُ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[آل عمران: ٧٧].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى حَقِّ امْرِئٍ

مُسْلِمٍ؛ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

وَثَبَتَ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) أَنَّهُ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ قَالَ: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ؛ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ كَانَ شَيْئًا قَلِيلًا؟ قَالَ: وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ».

وَالْيَمِينُ الَّتِي يَتَلَفَّظُ بِهَا الْمُسْلِمُ كَاذِبًا لِيَقْتَطِعَ بِهَا حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هِيَ (الْيَمِينُ الْغَمُوسُ)؛ الَّتِي تَغْمِسُ صَاحِبَهَا فِي النَّارِ، وَالَّتِي قَرَنَهَا النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بِالْكَبَائِرِ الْعِظَامِ فِي قَوْلِهِ: «الْكَبَائِرُ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ. فَسُئِلَ عَنْهَا فَقَالَ: الَّذِي يَقْتَطِعُ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ» يَعْنِي: بِيَمِينٍ كَاذِبَةٍ.

فَاتَّقُوا اللهَ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ عِبَادَ اللهِ ـ، وَرَاقِبُوهُ، ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٤].

أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ فِي اللهِ، وَمِنْ صُوَرِ الْحَلِفِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ: تِلْكَ الْأَيْمَانُ الَّتِي يُصْدِرُهَا الْمُسْلِمُ لِيَمْتَنِعَ بِهَا عَنْ فِعْلِ الْخَيْرِ، وَالَّتِي قَدْ نَهَى

اللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ عَنْهَا فِي قَوْلِهِ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[النور: ٢٢] أَيْ: لَا تَحْلِفُوا عَلَى أَنْ لَا تَتَصَدَّقُوا عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَلَا تَحْلِفُوا عَلَى أَنْ لَا تَصِلُوا أَقَارِبَكُمْ.

وَإِذَا وَقَعَ الْمُسْلِمُ فِي هَذِهِ الْيَمِينِ؛ فَيُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا حَلَفَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُكَفِّرَ عَنْ يَمِينِهِ؛ لِقَوْلِ اللهِ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤] أَيْ: لَا تَجْعَلُوا أَيْمَانَكُمْ مَانِعَةً لَكُمْ مِنْ فِعْلِ الْبِرِّ وَالتَّسَابُقِ فِي أَبْوَابِ الْخَيْرَاتِ.

وَلِذَا؛ ثَبَتَ عَنْهُ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّهُ قَالَ: «وَاللهِ إِنِّي ـ إِنْ شَاءَ اللهُ ـ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ فَإِلَّا فَعَلْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي»، وَثَبَتَ ـ أَيْضًا ـ عَنْهُ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ».

أَمَّا إِذَا حَلَفَ الْمُسْلِمُ عَلَى أَمْرٍ مُبَاحٍ فَإِنَّهُ يُخَيَّرُ بَيْنَ الِاسْتِمْرَارِ عَلَى يَمِينِهِ وَالِامْتِنَاعِ عَنِ الْمَحْلُوفِ عَنْهُ، وَبَيْنَ أَنْ يَأْتِيَ الْمَحْلُوفَ

عَنْهُ وَيُكَفِّرَ عَنْ يَمِينِهِ؛ ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم: ٢]، وَتَحِلَّتُهَا تَكُونُ بِالْكَفَّارَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي (سُورَةِ الْمَائِدَةِ) فِي قَوْلِهِ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ:

بَرَاءَةُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنْ تَفْجِيرَاتِ أَهْلِ الْأَلْغَامِ

عِبَادَ اللهِ، مُصَابٌ عَظِيمٌ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ عُمُومًا مَا وَقَعَ فِي مَدِينَةِ الرِّيَاضِ مِنْ تَفْجِيرَاتٍ سَمِعْتُمْ نَبَأَهَا وَشَاهَدْتُمْ صُوَرَهَا، قَامَ بِهَا مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِمُ الْمُصْطَفَى ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى فِيمَا صَحَّ عَنْهُ فِي (صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ) وَ(تَارِيخِ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ) ـ رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى ـ.

عَنْ حُذَيْفَةَ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ

قَرَأَ الْقُرْآنَ، حَتَّى إِذَا رُؤِيَتْ عَلَيْهِ بَهْجَتُهُ، وَكَانَ رِدْءًا لِلْإِسْلَامِ، غَيَّرَهُ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ؛ فَانْسَلَخَ مِنْ دِينِهِ، وَجَعَلَهُ خَلْفَهُ ظِهْرِيًّا، وَعَمَدَ إِلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ. قَالَ حُذَيْفَةُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّهُمَا أَحَقُّ بِالشِّرْكِ: الرَّامِي أَوِ الْمَرْمِيُّ؟ قَالَ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ: «الرَّامِي».

فَهَذَا الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ يُخْبِرُ فِيهِ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ أَنَّ فِئَةً مِنْ جِلْدَةِ الْمُسْلِمِينَ وَمِنْ بَنِيهِمْ سَوْفَ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، حَتَّى إِذَا ظَهَرَتْ عَلَيْهِمْ بَهْجَةُ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ، وَأَصْبَحُوا رِدْءًا لِلْإِسْلَامِ، طَرَأَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ؛ فَغَيَّرَ فِطَرَهُمْ؛ فَغَيَّرُوا دِينَ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إِلَى مَا شَاؤُوا، مِنَ الْأَهْوَاءِ الَّتِي رَكِبُوهَا، وَالْأَفْكَارِ الَّتِي انْتَحَلُوهَا؛ فَانْسَلَخُوا مِنَ الدِّينِ، وَجَعَلُوا الدِّينَ خَلْفَهُمْ ظِهْرِيًّا، وَمِنْ صُوَرِ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى جَارِهِمْ بِالسَّيْفِ، أَيْ: قَاتَلُوا أَهْلَ بَلَدِهِمْ، وَرَمَوْهُمْ بِالشِّرْكِ.

فَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا غَرِيبِينَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لَقَدْ خَرَجُوا يَوْمَ أَنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ مَوْجُودًا، فَقَالَ إِمَامُهُمْ لِرَسُولِ اللهِ: «يَا مُحَمَّدُ، اعْدِلْ»!! فَقَالَ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ: «يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا مَنْ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ،

وَصِيَامَكُمْ عِنْدَ صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ».

وَظَّفَ هَؤُلَاءِ الشَّيْطَانُ لِأَيِّ شَيْءٍ؟! وَظَّفَهُمْ لِلْقَضَاءِ عَلَى كُلِّ اجْتِمَاعٍ لِلْمُسْلِمِينَ، وَظَّفَهُمْ لِضَرْبِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الدَّاخِلِ؛ فَهُمْ «يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ».

اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى مَنْ؟! عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ـ، فَلَمْ يُعْجِبْهُمْ حَالُهُ؛ فَقَتَلُوهُ شَرَّ قِتْلَةٍ ـ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ ـ، فِي قِصَّةٍ مَأْسَاوِيَّةٍ يَعْلَمُهَا الْمُسْلِمُونَ، لَا زَالَتْ قُلُوبُهُمْ مَمْسُوءَةً بِسَبَبِهَا.

وَجَاءَ الْخَلِيفَةُ بَعْدَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ، فَقَتَلُوهُ فِي صُورَةٍ مَأْسَاوِيَّةٍ ـ كَذَلِكَ ـ.

وَجَاءَ الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ الْخَامِسُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ، فَخَرَجُوا عَلَيْهِ، وَقَاتَلُوهُ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ مُشْرِكٌ بِاللهِ، مُغَيِّرٌ لِحُكْمِ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ!!

فَهُمْ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ وَهْبُ بْنُ الْمُنَبِّهِ: «قَوْمٌ لَا يُرْضِيهِمْ أَنْ تَجْتَمِعَ كَلِمَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا أَنْ تَتَّحِدَ صُفُوفُهُمْ».

هَؤُلَاءِ شَرٌّ فِي جِسْمِ الْأُمَّةِ، كَالْأَمْرَاضِ الَّتِي تَطْرَأُ عَلَى جَسَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا؛ عِلَاجُهَا بِإِصْلَاحِهَا، وَطَلَبِ الدَّوَاءِ لَهَا، فَإِذَا لَمْ تَنْجَعْ هَذِهِ الْأَدْوِيَةُ فِي شِفَائِهَا بَعْدَ أَمْرِ اللهِ . عَزَّ وَجَلَّ .؛ فَآخِرُ الْعِلَاجِ الْكَيُّ، وَالِاسْتِئْصَالُ مِنْ أَوْرَامٍ خَبِيثَةٍ وَنَحْوِهَا نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ عِلَاجِهَا.

لَقَدْ . وَاللهِ . مَرَقُوا مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ؛ إِذْ أَنَّهُمْ خَالَفُوا النُّصُوصَ الْمُحْكَمَاتِ الْوَاضِحَاتِ فِي كِتَابِ اللهِ . عَزَّ وَجَلَّ . وَفِي سُنَّةِ النَّبِيِّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .؛ لِمُجَرَّدِ أَفْهَامٍ كَاسِدَةٍ، وَظُنُونٍ بَاطِلَةٍ، لِمُجَرَّدِ شُبَهٍ كَبُيُوتِ الْعَنْكَبُوتِ، وَصَدَقَ اللهُ . عَزَّ وَجَلَّ . إِذْ وَصَفَهُمْ فَقَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[آل عمران: ٧].

صَدَقَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى الْخَوَارِجِ، وَفَسَّرَهَا السَّلَفُ . رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ . مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بِالْخَوَارِجِ؛ لِأَنَّهُمْ يَلْتَمِسُونَ مُتَشَابِهَاتٍ فِي الْقُرْآنِ؛ فَيَضْرِبُونَ بِهَا الْأُمُورَ الْمُحْكَمَةَ، وَالنُّصُوصَ الْمُحْكَمَةَ، وَالْأُمُورَ الْمُجْمَعَ عَلَيْهَا.

فَهَؤُلَاءِ.. مَا قَامُوا بِهِ مِنْ عَمَلٍ هَلْ هُوَ جِهَادٌ؟!

وَاللهِ لَوْ عُرِضَ عَلَى كُلِّ مِلَّةٍ، وَاللهِ لَوْ عُرِضَ عَلَى كُلِّ فِطْرَةٍ سَلِيمَةٍ ـ لَأَخْبَرَتْ أَنَّهُ غَدْرٌ وَخِيَانَةٌ، وَأَنَّهُ جُبْنٌ وَذُلٌّ.

وَالشَّرَائِعُ السَّمَاوِيَّةُ لَا تَرْضَى بِهِ، وَالْإِسْلَامُ عَلَى رَأْسِ هَذِهِ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ ـ وَهُوَ خَاتَمُهَا ـ جَاءَ بِتَحْرِيمِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ، وَبِالنَّهْيِ عَنْهَا، وَبِجَعْلِهَا فِي مَصَافِّ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ.

فَأَيَّ جِنَايَةٍ جَنَوْا عَلَى الْإِسْلَامِ؟! وَأَيَّ جِنَايَةٍ جَنَوْا عَلَى الْعَرَبِ؟!!

الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ لَا تَعْرِفُ هَذِهِ الْأَلْوَانَ مِنَ الْغَدْرِ؛ مَنْ أَعْطَوْهُ الْأَمَانَ ـ أَوْ أَعْطَاهُ بَعْضُهُمُ الْأَمَانَ ـ يَدْفَعُونَ دِمَاءَهُمْ دُونَهُ، وَلَوْ كَانَ ضِدَّهُمْ فِي كُلِّ مَبْدَأٍ. وَأَهْلُ الْإِسْلَامِ أَكَّدَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامُ ذَلِكَ، وَرَسَّخَهُ فِي نُفُوسِهِمْ أَكْثَرَ.

فَهَؤُلَاءِ.. لَا لِقِيَمِ الْجَاهِلِيَّةِ رَعَوْا، وَلَا لِمَبَادِئِ الْإِسْلَامِ حَفِظُوا.

يَقُولُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ـ فِي (سُورَةِ الْحَجِّ): ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[الحج: ٣٨]، هَذِهِ الْآيَةُ.. اذْهَبُوا إِلَى تَفْسِيرِ الْإِمَامِ الْقُرْطُبِيِّ الْمَالِكِيِّ ـ وَهُوَ

مِنْ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ، لَيْسَ مِنْ عُلَمَاءِ السُّلْطَةِ؛ لِأَنَّهُ تُوُفِّيَ قَبْلَ سَبْعِمِائَةِ سَنَةٍ ـ فَانْظُرُوا مَاذَا يَقُولُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ.

يَقُولُ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ بِسَبَبِ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا كَثُرُوا فِي مَكَّةَ وَآذَاهُمُ الْكُفَّارُ؛ فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ، وَمَنْ بَقِيَ بِمَكَّةَ قَالُوا: إِنَّنَا سَوْفَ نَقْتُلُ مَنْ أَمْكَنَنَا مِنَ الْكُفَّارِ، وَسَوْفَ نَغْتَالُ وَنَغْدِرُ وَنَحْتَالُ؛ فَتَدَخَّلَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِأَمْرِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي حَاجَةٍ لِنَشْرِ الدِّينِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ الْخَسِيسَةِ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فَهُوَ الْمُتَكَفِّلُ بِالدِّفَاعِ عَنْهُمْ، وَبِحِفْظِ دِينِهِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، أَمَّا هَذِهِ الطُّرُقُ فَاللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

قَالَ الْإِمَامُ الْقُرْطُبِيُّ: فَهَذِهِ الْآيَةُ أَفْصَحُ نَصٍّ فِي النَّهْيِ عَنِ الْغَدْرِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ.

فَيَا سُبْحَانَ اللهِ! يَرُومُونَ أَنْ يَدْعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ بِغَيْرِ هَدْيِ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ؛ خَابُوا وَخَسِرُوا.

هَؤُلَاءِ لَا يُعْجِبُهُمْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ مَهْمَا بَلَغَ فِي الصَّلَاحِ وَالِاسْتِقَامَةِ.

رَوَى ابْنُ مَرْدُوَيَهِ أَنَّ أَحَدَ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِجِ . أَحَدَ أَجْدَادِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَجَّرُوا فِي الرِّيَاضِ . جَاءَ إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ . رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَقَالَ لِسَعْدٍ . مَاذَا قَالَ لِهَذَا الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ؟! فَقَالَ لَهُ .: «أَنْتَ مِنْ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ»!! فَأَجَابَهُ سَعْدٌ . رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .: «كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّنِي قَاتَلْتُ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ».

أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ . رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، الْإِمَامُ الصَّحَابِيُّ الْمُجَاهِدُ، جَاهَدَ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِجَ، فَتَابَعَ أَحَدَهُمْ فِي مَعْرَكَةٍ مَشْهُورَةٍ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَبَيْنَهُمْ، فَشَجَّهُ بِرُمْحِهِ، فَدَخَلَ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ . بِكُلِّ ثِقَةٍ؛ لِمَا يَعْلَمُهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .: «أَبْشِرْ . يَا عَدُوَّ اللهِ . بِالنَّارِ».

فَمَاذَا قَالَ لَهُ هَذَا الْخَارِجِيُّ وَهُوَ فِي حَالِ الِاحْتِضَارِ . انْظُرُوا إِلَى الْفِكْرِ مَاذَا يَفْعَلُ بِأَصْحَابِهِ .؟!

الْتَفَتَ وَالرُّمْحُ فِي ظَهْرِهِ، وَقَالَ لِأَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ . رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .: «سَتَعْلَمُ غَدًا مَنْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا»: يَعْنِي أَنَّكُمْ . أَيُّهَا الصَّحَابَةُ . أَوْلَى مِنَّا بِالنَّارِ، وَنَحْنُ أَهْلُ الْحَقِّ.. وَهَكَذَا هُمْ . وَالْعِيَاذُ بِاللهِ ..

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، أَدِلَّةٌ جَلِيَّةٌ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ تُبَيِّنُ أَنَّ مَا قَامَ بِهِ هَؤُلَاءِ بَاطِلٌ وَضَلَالٌ مُبِينٌ، لَنْ أُطِيلَ عَلَيْكُمْ بِهَا.

يَقُولُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فِي (الْوَصَايَا الْعَشْرِ) فِي (سُورَةِ الْأَنْعَامِ): ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الأنعام: ١٥١]، وَالنَّفْسُ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ قَتْلَهَا هِيَ: نَفْسُ الْمُؤْمِنِ، وَنَفْسُ الْمُعَاهَدِ الَّذِي دَخَلَ بِلَادَ الْإِسْلَامِ بِعَهْدٍ وَأَمَانٍ، حَتَّى لَوْ أَمَّنَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَحْفَظُوا هَذِهِ الذِّمَّةَ، حَتَّى لَوْ أَمَّنَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَبَ أَنْ يَحْتَرِمَ الْجَمِيعُ هَذِهِ الذِّمَّةَ، وَلَوْ كَانَ الْمُؤَمَّنُ كَافِرًا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، مُحَارِبًا قَبْلَ هَذَا الْأَمَانِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ.

يَقُولُ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ عِنْدَمَا جَاءَتْ أُمُّ هَانِئٍ بِمُشْرِكَيْنِ حَرْبِيَّيْنِ يُقَاتِلَانِ رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، فَقَالَتْ: «إِنِّي قَدْ أَجَرْتُهُمَا». فَكَأَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ لَمْ يَرْضَ هَذَا الْأَمَانَ مِنْهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ ـ يَا أُمَّ هَانِئٍ ـ».

وَثَبَتَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) أَنَّهُ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ قَالَ كَمَا فِي حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: «وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا

أَدْنَاهُمْ».

فَسُبْحَانَ اللهِ! هَؤُلَاءِ الَّذِينَ دَخَلُوا إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ دَخَلُوهَا بِأَمَانٍ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ دُخُولَهُمْ بِأَمَانٍ جَائِزٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ مَا دَامَ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ مَصْلَحَةٌ؛ فَبِأَيِّ حَقٍّ تَقْتُلُهُمْ؟! وَبِأَيِّ شَرِيعَةٍ تَغْدِرُ بِهِمْ؟!!

إِنَّكَ لَسْتَ مِنَ الْخَوَارِجِ الْأَقْحَاحِ الْأَقْوِيَاءِ الشُّجْعَانِ الَّذِينَ يُوَاجِهُونَ الْحُرُوبَ وَيُوَاجِهُونَ الرِّجَالَ؛ وَلَكِنَّكَ أَخَذْتَ مِنَ الْخَوَارِجِ تَكْفِيرَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَطْعَ عَهْدِهِمْ وَذِمَمِهِمْ، وَأَخَذْتَ مِنَ الْأَحْزَابِ الشُّيُوعِيَّةِ . وَأَمْثَالِهَا مِنَ الْأَحْزَابِ . الْغَدْرَ وَالنَّتَاعَةَ، وَأَنَّ الْغَايَةَ تُبَرِّرُ الْوَسِيلَةَ؛ لِأَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ؟!!!

فَهَؤُلَاءِ لَمْ يَكُونُوا مِنَ الْخَوَارِجِ الصِّرْفِ؛ لِأَنَّ الْخَوَارِجَ الصِّرْفَ أَشْرَفُ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ وَلَكِنَّهُمْ جَمَعُوا تَكْفِيرَ الْمُسْلِمِينَ، وَجَمَعُوا خِسَّةَ طُرُقِ الْأَحْزَابِ الشُّيُوعِيَّةِ وَنَحْوِهَا الَّتِي لَا دِينَ لَهَا فِي التَّعَامُلِ مَعَ قَضَايَاهُمْ وَالْوُصُولِ إِلَى غَايَتِهِمْ.

فَهَلْ هَؤُلَاءِ يَفْرَحُ بِهِمْ مُؤْمِنٌ؟! وَهَلْ هَؤُلَاءِ يُعْجَبُ بِأَعْمَالِهِمْ مُعْجَبٌ؟!

لَا ـ وَاللهِ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ـ

دَلِيلٌ آخَرُ فِي (مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ) وَفِي (مُشْكِلِ الْآثَارِ) لِلطَّحَاوِيِّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ وَغَيْرِهَا مِنْ دَوَاوِينِ الْإِسْلَامِ: أَنَّ رِبَاعَةَ بْنَ شَدَّادٍ كَانَ مِنَ التَّابِعِينَ، وَكَانَ وَاقِفًا عَلَى رَأْسِ الْمُخْتَارِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ، تَعْرِفُونَ مَنْ هُوَ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ؟ إِنَّهُ مُدَّعِي النُّبُوَّةِ، الَّذِي ادَّعَى أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ

وَكَانَ هَذَا التَّابِعِيُّ ـ الَّذِي تَرَبَّى فِي أَحْضَانِ السَّلَفِ، وَلَمْ تَعْصِفْ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا الْعَوَاطِفُ الْمُبْتَعِدَةُ عَنِ الشَّرْعِ ـ وَاقِفًا عَلَى رَأْسِ الْمُخْتَارِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ، يَقُولُ ابْنُ شَدَّادٍ: «فَلَمَّا عَلِمْتُ كَذِبَهُ هَمَمْتُ أَنْ أَسُلَّ سَيْفِي وَأَنْ أَضْرِبَ عُنُقَهُ»، كَافِرٌ، مُدَّعِي النُّبُوَّةِ. يَقُولُ: «فَمَا مَنَعَنِي مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا سَمِعْتُهُ مِنْ عَمْرِو بْنِ الْحَمِقِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: مَنْ أَمَّنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ؛ نُصِبَ لَهُ لِوَاءُ الْغَدْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

هَذَا لَفْظُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَفِي لَفْظٍ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّهُ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَسْتَأْمِنُ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ فَيَقْتُلُهُ؛ إِلَّا بَرِئْتُ مِنَ الْقَاتِلِ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا». وَفِي لَفْظٍ لِهَذَا الْحَدِيثِ عِنْدَ عَبْدِ الرَّزَّاقِ فِي (مُصَنَّفِهِ) أَنَّ النَّبِيَّ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

وَالسَّلَامُ ـ قَالَ: «فَقَدْ بَرِئَتْ ذِمَّةُ اللهِ مِنَ الْقَاتِلِ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا».

هَذِهِ النُّصُوصُ الصَّرِيحَةُ.. أَيْنَ هُمْ عَنْهَا؟!

إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا حَقًّا، وَلَكِنَّ قُلُوبَهُمْ جُبِلَتْ عَلَى اتِّبَاعِ الْمُتَشَابِهِ؛ حَتَّى يَكْتُبَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَمْرًا مَقْضِيًّا.

فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، اتَّقُوا اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ بِالِابْتِعَادِ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأَفْكَارِ الضَّالَّةِ الْمُضِلَّةِ، وَعَنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْبَائِسَةِ.

إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَوْ بَذَلُوا مَلَايِينَ الدُّولَارَاتِ، وَأَنْفَقُوا خَزَائِنَ الذَّهَبِ؛ لِتَشْوِيهِ صُورَةِ الْإِسْلَامِ بِمِثْلِ مَا شَوَّهَ هَؤُلَاءِ دِينَ الْإِسْلَامِ ـ لَمَا اسْتَطَاعُوا، وَقَدْ أَعْجَزَهُمْ ذَلِكَ ـ بِحَمْدِ اللهِ ـ، وَمَا زَالَ الْإِسْلَامُ يَسْرِي فِي الْغَرْبِ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ، رَغْمَ مَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ دَوَافِعَ وَمِنْ مُضَادَّاتٍ لِانْتِشَارِ هَذَا الدِّينِ إِلَّا أَنَّ النَّاسَ يَقْبَلُونَهُ.

حَتَّى ابْتُلِيَ النَّاسُ بِمِثْلِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ شَوَّهُوا صُورَتَهُ، وَأَدْخَلُوا فِيهِ مَا هُوَ دَخِيلٌ وَمَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ دِينِ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ

يَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الدَّوْلَةَ لَيْسَ لَهَا بَيْعَةٌ، أَمَّا نَحْنُ فَإِنَّنَا مَسْؤُولُونَ عَنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ!!

هَذِهِ الدَّوْلَةُ.. عُلَمَاءُ . احْسُبُوهُمْ مَعِي .: الشَّيْخُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللَّطِيفِ آلُ الشَّيْخِ . رَحِمَهُ اللهُ . مِنْ أَئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ فِي الْقَرْنِ الْمُنْصَرِفِ، وَالشَّيْخُ عُمَرُ بْنُ سَرِيرٍ، وَالشَّيْخُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ آلُ الشَّيْخِ، وَالشَّيْخُ سَعْدُ بْنُ عَتِيقٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ وَعُلَمَائِهِ الْكِبَارِ، وَالشَّيْخُ سُلَيْمَانُ بْنُ سَحْمَانَ، وَالشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرٍ السَّعْدِيُّ، وَالشَّيْخُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ بَازٍ، وَالشَّيْخُ عَبْدُ اللهِ بْنُ حُمَيْدٍ، وَالشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ...

(كُلُّ هَؤُلَاءِ) يَنُصُّونَ عَلَى شَرْعِيَّةِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ، وَعَلَى صِحَّةِ بَيْعَتِهَا.

فَهَؤُلَاءِ يُجْمِعُونَ عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنْتُمْ . أَيُّهَا الشِّرْذِمَةُ الصِّغَارُ!! . تَضَعُونَ أَنْفُسَكُمْ بِأَنَّ لَكُمُ الْوِلَايَةَ عَلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَعَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ؟! مَنِ الَّذِي خَوَّلَكُمْ؟!! وَمَنِ الَّذِي أَعْطَاكُمْ ذَلِكَ؟!!!

وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ سَائِبًا كَمَا تَفْعَلُونَ؛ لَكَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي فَوْضَى وَاضْطِرَابٍ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا.

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ هَذِهِ الْأَفْكَارِ؛ فَإِنَّهَا لَا يُرَادُ بِهَا سِوَى هَدْمِ الدِّينِ.

وَلِهَذَا؛ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فِي سُنَّتِهِ الْكَوْنِيَّةِ لَا يَجْعَلُ لِهَؤُلَاءِ الْخَوَارِجِ دَوْلَةً. لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الْأُمُورَ لَا تَسْتَقِيمُ بِهِمْ وَلَا بِأَفْكَارِهِمْ؛ فَهُمْ يُكَفِّرُونَ الْمُجْتَمَعَاتِ عُمُومًا، وَهُمُ الْيَوْمَ يُقَتِّلُونَ مَنْ تَرَوْنَ؛ لِيَتَذَرَّعُوا إِلَى قُلُوبِ الشَّبَابِ الْمُغَرَّرِ بِهِمْ؛ حَتَّى يُفْسِدُوا أَكْبَرَ قَدْرٍ مُمْكِنٍ مِنَ الشَّبَابِ، ثُمَّ سَيَعُودُونَ إِلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ يُقَتِّلُونَهُمْ.

نَسْأَلُ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَنْ لَا يُرِيَنَا هَذَا الْيَوْمَ، وَأَنْ يَدْفَعَ شَرَّهُمْ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، نَحْنُ فِي هَذَا الْمُجْتَمَعِ فِي سَفِينَةٍ وَاحِدَةٍ، إِنْ غَرِقَتْ هَذِهِ السَّفِينَةُ هَلَكَ الْجَمِيعُ، وَإِنْ نَجَتْ هَذِهِ السَّفِينَةُ نَجَا الْجَمِيعُ، وَالسَّفِينَةُ الَّتِي نَعِيشُ فِيهَا لَا نَقُولُ: إِنَّهَا كَامِلَةٌ، وَإِنَّهَا تَامَّةٌ؛ بَلِ النَّقْصُ مَوْجُودٌ، وَلَكِنْ حَسْبُهَا أَنَّهَا تَسِيرُ، وَأَنَّهَا تَسْتَمِرُّ فِي الْعَطَاءِ؛ فَإِصْلَاحُهَا وَالْقِيَامُ عَلَى تَقْوِيمِهَا هُوَ شَرْعُ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ، لَا تَدْمِيرُهَا وَإِغْرَاقُهَا حَتَّى يَغْرَقَ النَّاسُ جَمِيعًا.

فَاتَّقُوا اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فِي هَذَا الْخَيْرِ الَّذِي أَجْرَاهُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عَلَى أَيْدِيكُمْ، احْفَظُوهُ؛ يَحْفَظْكُمُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَلَا تَكُونُوا

كَالَّذِينَ كَفَرُوا نِعْمَةَ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَأَرَادُوا أَنْ يُبَدِّلَهُمُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِالْأَمْنِ خَوْفًا، وَبِالنِّعْمَةِ كُفْرَانًا ـ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ ـ؛ فَتَضِلُّوا فِي الدُّنْيَا، وَتَشْقَوْا فِي الْآخِرَةِ.

اتَّقُوا اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَيُّهَا الْمُدَرِّسُونَ، أَيُّهَا الْآبَاءُ، أَيُّهَا الْوُعَّاظُ وَالْمُذَكِّرُونَ ـ فِي أَنْفُسِكُمْ بِتَبْلِيغِ النَّاسِ دِينَ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الصَّحِيحَ، اتَّقُوا اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فِي أُمَمٍ وَرَاءَكُمْ تُرِيدُ أَنْ تَتَعَرَّفَ عَلَى هَذَا الدِّينِ؛ فَعَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَتَعَرَّفَ هَذِهِ الْأُمَمُ عَلَى دِينِكُمْ إِلَّا عَنْ طَرِيقِكُمْ ـ أَيُّهَا الْأُمَنَاءُ الَّذِينَ تَنْقُلُونَهُ بِصُورَةٍ صَحِيحَةٍ ـ.

دَعُوا عَنْكُمْ مَنْ يَكُونُ غَاضِبًا لِأَجْلِ نُقْصَانٍ فِي جُهْدِ مِيَاهٍ، دَعُوا عَنْكُمْ مَنْ يَكُونُ الْحِقْدُ قَدْ مَلَأَ قَلْبَهُ لِأَنَّ فُلَانًا تَصَدَّرَ الْمَسْؤُولِيَّةَ وَهُوَ لَمْ يَتَصَدَّرْهَا؛ فَهَؤُلَاءِ حَظُّهُمُ الدُّنْيَا فَقَطْ، أَمَّا أَهْلُ الْآخِرَةِ فَلَا يَأْبَهُونَ بِهَذِهِ الدُّنْيَا، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَيْهَا، وَلِهَذَا؛ هُمْ يَتَّبِعُونَ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عِنْدَمَا يَسْتَأْثِرُ مَنْ يَسْتَأْثِرُ بِالْمَالِ: أَنْ لَا يَنْظُرُوا إِلَى هَذَا الِاسْتِئْثَارِ، وَأَنْ لَا يَنْتَقِمُوا لِأَنْفُسِهِمْ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ هَمُّهُمْ أَنْ يَنْشُرُوا دِينَ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَأَنْ يُقِيمُوا الْحُجَّةَ عَلَى عِبَادِهِ أَجْمَعِينَ.

الْخُطْبَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: تَبْصِيرُ الْأَوْلِيَاءِ بِفَضْلِ الدُّعَاءِ

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ شَرَعَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لِعِبَادِهِ الدُّعَاءَ وَالتَّضَرُّعَ وَالِابْتِهَالَ إِلَيْهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ، وَفِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ ـ لَيْلًا وَنَهَارًا، شِدَّةً وَرَخَاءً ؛ إِظْهَارًا لِافْتِقَارِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَتَبَرُّؤًا مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ ـ تَعَالَى ـ، وَاسْتِشْعَارًا لِذِلَّتِهِمْ وَمَسْكَنَتِهِمْ أَمَامَ اللهِ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ، وَسِمَةً مِنْ أَجَلِّ سِمَاتِ عُبُودِيَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَإِقْرَارًا بِفَضْلِهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ وَكَرَمِهِ وَجُودِهِ.

قَالَ اللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ • وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الْأَعْرَافِ: ٥٥-٥٦] أَيِ: ادْعُوا رَبَّكُمْ دُعَاءَ مَسْأَلَةٍ، وَدُعَاءَ عِبَادَةٍ، مُلِحِّينَ فِي دُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ، دَؤُوبِينَ فِي دُعَاءِ الْعِبَادَةِ، مُخْفِينَ هَذَا الدُّعَاءَ؛ خَشْيَةً مِنَ الرِّيَاءِ، طَامِعِينَ فِي قَبُولِهِ، خَائِفِينَ وَجِلِينَ مِنْ رَدِّهِ.

وَقَالَ ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غَافِرٍ: ١٤].

وَقَالَ: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الْأَعْرَافِ: ٢٩، غَافِرٍ: ٦٥].

وَفِي (سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ) وَغَيْرِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: «لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا، حَتَّى يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ».

وَفِي (التِّرْمِذِيِّ) ـ أَيْضًا ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ؛ يَغْضَبْ عَلَيْهِ».

وَفِيهِ ـ أَيْضًا ـ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ ـ رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: «سَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ».

وَمَا هَذَا التَّأْكِيدُ الْمُتَتَابِعُ مِنَ الشَّرْعِ فِي شَأْنِ دُعَاءِ اللهِ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ إِلَّا لِمَا يَقُومُ بِالدُّعَاءِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ وَيَرْضَاهَا مِنْ عِبَادِهِ؛ وَلِذَا؛ قَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» أَيْ: جُلُّهَا وَمُعْظَمُهَا؛ لِمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ ذُلِّ الْعَبْدِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ وَمِنْ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ وَهَذَانِ الْأَمْرَانِ هُمَا قُطْبَا الْعِبَادَةِ؛ لَا تَقُومُ الْعِبَادَةُ إِلَّا عَلَيْهِمَا، كَمَا قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

وَلَقَدْ وَعَدَ اللهُ . جَلَّ وَعَلَا . وَوَعْدُهُ حَقٌّ حَسْمٌ . مَنْ دَعَاهُ وَسَأَلَهُ وَالْتَجَأَ إِلَيْهِ أَنْ لَا يَرُدَّ سُؤْلَهُ، وَأَنْ لَا يُخَيِّبَ مُرَادَهُ؛ فَقَالَ اللهُ . جَلَّ وَعَلَا .: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٨٦]، وَقَالَ . تَعَالَى .: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غَافِرٍ: ٦٠].

وَثَبَتَ فِي (الْمُسْنَدِ) وَغَيْرِهِ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ . رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . أَنَّ النَّبِيَّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي إِذَا مَدَّ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ».

فَاهْتَبِلُوا . عِبَادَ اللهِ . هَذِهِ الْفُرْصَةَ الثَّمِينَةَ، وَهَذِهِ الْمَكْرُمَةَ الْعَظِيمَةَ، وَأَنْزِلُوا حَاجَاتِكُمْ بِاللهِ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .؛ يَقْضِيهَا اللهُ . تَبَارَكَ وَتَعَالَى . لَكُمْ.

عِبَادَ اللهِ، يَعْرِضُ الشَّيْطَانُ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فِي شُبْهَتَيْنِ مَمْقُوتَتَيْنِ مَرْدُودَتَيْنِ، بِهِمَا يُزَهِّدُهُمْ عَنْ دُعَاءِ اللهِ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، هَاتَانِ الشُّبْهَتَانِ هُمَا: أَنَّ اللهَ . جَلَّ وَعَلَا . قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ؛ فَفِيمَ يُغْنِي الدُّعَاءُ عِنْدَئِذٍ؟! هَذِهِ شُبْهَةٌ.

وَالشُّبْهَةُ الْأُخْرَى: أَنَّنَا نَرَى كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَدْعُونَ اللهَ . جَلَّ وَعَلَا . فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ.

بِهَاتَيْنِ الشُّبْهَتَيْنِ صُرِفَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَنْ كَثْرَةِ دُعَاءِ اللهِ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَإِنْزَالِ الْحَوَائِجِ بِهِ.

وَعَنْ كَشْفِهِمَا نَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَدْ أَزَالَ هَاتَيْنِ الشُّبْهَتَيْنِ وَكَشَفَهُمَا بِمَا لَا يَدَعُ مَجَالًا فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فِي وُجُوبِ إِنْزَالِ حَاجَتِهِ بِاللهِ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . فِي كُلِّ وَقْتٍ وَعَلَى أَيِّ حَالٍ.

فَعَنِ الشُّبْهَةِ الْأُولَى يَقُولُ النَّبِيُّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .: «لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ لَيَنْزِلُ، فَيَتَلَقَّاهُ الدُّعَاءُ؛ فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَثَبَتَ عَنْهُ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ».

يَقُولُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ: «لِلْبَلَاءِ مَعَ الدُّعَاءِ ثَلَاثُ مَقَامَاتٍ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ الدُّعَاءُ أَقْوَى مِنَ الْبَلَاءِ؛ فَعِنْدَئِذٍ يَدْفَعُ الدُّعَاءُ الْبَلَاءَ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الدُّعَاءُ أَضْعَفَ مِنَ الْبَلَاءِ؛ فَيَقْوَى الْبَلَاءُ عَلَى الدُّعَاءِ؛ فَيُصَابُ بِهِ الْعَبْدُ. وَالْمَقَامُ الثَّالِثُ: أَنْ يَتَقَاوَمَ الدُّعَاءُ وَالْبَلَاءُ؛ فَيَمْنَعَ كُلٌّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ».

وَبِهَذَا تَنْكَشِفُ هَذِهِ الشُّبْهَةُ، وَتَزُولُ ـ إِنْ شَاءَ اللهُ ـ؛ فَلَا يَتَعَلَّقَنَّ بِهَا أَحَدٌ بَعْدَ سَمَاعِ هَذِهِ النُّصُوصِ الْوَاضِحَةِ الْجَلِيَّةِ.

أَمَّا عَنِ الشُّبْهَةِ الثَّانِيَةِ؛ وَهِيَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: إِنَّنَا نَرَى أُنَاسًا يَدْعُونَ اللهَ ثُمَّ يَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ؛ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى الدُّعَاءِ عِنْدَئِذٍ. فَالْجَوَابُ عَنْهَا مِنْ وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ سَبَبَ عَدَمِ إِجَابَةِ هَؤُلَاءِ النَّاسِ قَدْ يَكُونُ عَائِدًا إِلَى وُجُودِ مَانِعٍ مِنْ مَوَانِعِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ فِيهِمْ، وَمَوَانِعُ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ كَثِيرَةٌ جِدًّا نَصَّ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَلَيْهَا فِي أَحَادِيثَ مُتَعَدِّدَةٍ.

مِنْهَا: قَوْلُ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ.. وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ؟!».

وَيَقُولُ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ، أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، أَوْ يَسْتَعْجِلْ يَقُولُ: دَعَوْتُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي».

وَثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يَدْعُونَ اللهَ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ: رَجُلٌ تَحْتَهُ امْرَأَةٌ سَيِّئَةُ الْخُلُقِ فَلَمْ يُطَلِّقْهَا، وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ مَالٌ فَلَمْ يُشْهِدْ عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ آتَى سَفِيهًا مَالَهُ وَاللهُ يَقُولُ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النِّسَاءِ: ٥]».

فَهَذِهِ سَبْعَةُ أُمُورٍ تَمْتَنِعُ اسْتِجَابَةُ الدُّعَاءِ لِصَاحِبِهَا أَوْ فِي حَالَاتِهَا، ذَكَرْنَاهَا عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ لَا الْحَصْرِ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي مِنْ كَشْفِ الشُّبْهَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، هُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ذَكَرَ أَنَّهُ «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللهَ دَعْوَةً إِلَّا أَعْطَاهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ أُمُورٍ: إِمَّا أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ لَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ

وَالْبَلَاءِ مِثْلَهَا»؛ فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ تَدُورُ دَعْوَتُكَ . يَا عَبْدَ اللهِ . بَيْنَهَا.

إِذَا اتَّضَحَ هَذَا؛ فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ الَّذِينَ يَدْعُونَ اللهَ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ؛ إِمَّا أَنْ يَقُومَ بِهِمْ مَانِعٌ مِنْ مَوَانِعِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ، وَإِمَّا أَنَّ اللهَ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . ادَّخَرَ دَعْوَتَهُمْ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، أَوْ صَرَفَ عَنْهُمْ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا.

فَاجْتَهِدُوا . عِبَادَ اللهِ . فِي دُعَاءِ اللهِ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَأَنْزِلُوا حَاجَاتِكُمْ بِهِ دَوْمًا وَأَبَدًا، وَأَلِحُّوا فِي دُعَائِهِ؛ فَهُوَ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَحْدَهُ الْمُفَرِّجُ لِمَا نَزَلَ بِكُمْ مِنْ كُرُبَاتٍ، وَالْمُعْطِي لَكُمْ مَا سَأَلْتُمُوهُ مِنْ خَيْرَاتٍ.

يَقُولُ بَعْضُ السَّلَفِ: «دَعَوْتُ اللهَ . جَلَّ وَعَلَا . بِحَاجَةٍ وَاحِدَةٍ عِشْرِينَ عَامًا وَلَا زِلْتُ».

وَيَقُولُ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ . رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى .: «عَلَيْكُمْ بِدُعَاءِ اللهِ، وَلَا يَمْنَعْكُمْ مِنْ دُعَاءِ اللهِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ . جَلَّ وَعَلَا . اسْتَجَابَ لِإِبْلِيسَ وَهُوَ عَدُوُّ اللهِ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .».

عِبَادَ اللهِ، هُنَاكَ أَوْقَاتٌ وَهَيْئَاتٌ وَحَالَاتٌ يَسْتَجِيبُ اللهُ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . فِيهَا الدُّعَاءَ؛ فَاعْرِفُوهَا، وَتَعَرَّضُوا لِمَوْلَاكُمْ فِيهَا؛ تَنَالُونَ مَا أَرَدْتُمْ مِنْ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَمِنْ ذَلِكَ: جَوْفُ اللَّيْلِ الْأَخِيرُ؛ فَهُوَ مَظِنَّةُ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ؛ يَقُولُ النَّبِيُّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .: «إِنَّ رَبَّكُمْ يَنْزِلُ فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؛ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؛ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ».

وَمِنْ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ: الدُّعَاءُ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يُرَدُّ الدُّعَاءُ بَيْنَ النِّدَاءِ وَالْإِقَامَةِ».

وَمِنْ تِلْكَ الْمَوَاقِعِ: آخِرُ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَخْبَرَ: «إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللهَ . جَلَّ وَعَلَا . إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا أَرَادَ»، وَهُوَ فِي أَصَحِّ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ آخِرُ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ.

وَمِنْ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ: حَالُ نُزُولِ الْمَطَرِ، وَحَالُ الْتِقَاءِ الصَّفَّيْنِ فِي الْقِتَالِ.

وَمِنْ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ ـ أَيْضًا ـ: الْمُضْطَرُّ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُ مُجَابَةٌ حَتَّى لَوْ كَانَ كَافِرًا؛ ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النَّمْلِ: ٦٢].

وَمِنْ تِلْكَ ـ أَيْضًا ـ: دَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ، وَدَعْوَةُ الصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ.

وَهَكَذَا أُمُورٌ كَثِيرَةٌ يَتَأَكَّدُ فِيهَا الدُّعَاءُ، وَتُرْجَى فِيهَا الِاسْتِجَابَةُ رَجَاءً قَوِيًّا.

فَعَلَيْكُمْ ـ يَا عِبَادَ اللهِ ـ أَنْ تَعْرِفُوا هَكَذَا الْأَوْقَاتِ، وَأَنْ تَدْعُوا اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ فِيهَا؛ عَلَّ اللهَ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ أَنْ يُؤْتِيَكُمْ سُؤْلَكُمْ.

الْخُطْبَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَذْكِيرُ الرِّجَالِ بِفِتْنَةِ الدَّجَّالِ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، لَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَلَامَاتٍ وَأَشْرَاطًا لِلسَّاعَةِ إِذَا ظَهَرَتْ فَقَدْ قَرُبَ قِيَامُ السَّاعَةِ، وَآذَنَتِ الدُّنْيَا بِالِانْتِهَاءِ.

وَإِنَّ أَكْبَرَ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَأَعْظَمَهَا فِتْنَةً: خُرُوجُ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؛ فَإِنَّهُ لَا فِتْنَةَ أَكْبَرُ مِنْ فِتْنَتِهِ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ آدَمَ . عَلَيْهِ السَّلَامُ . إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ . صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ..

وَذَلِكَ بِسَبَبِ مَا يَخْلُقُ اللهُ . جَلَّ وَعَلَا . مَعَهُ مِنَ الْخَوَارِقِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَبْهَرُ الْعُقُولَ وَتُحَيِّرُ الْأَفْئِدَةَ، فَيَسْتَعْمِلُهَا فِي فِتْنَةِ النَّاسِ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ رَبُّهُمْ وَخَالِقُهُمْ!!

فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ مَعَهُ جَنَّةً وَنَارًا . وَجَنَّتُهُ نَارٌ، وَنَارُهُ جَنَّةٌ .، وَأَنَّ مَعَهُ أَنْهَارَ الْمَاءِ، وَجِبَالَ الْخُبْزِ، وَيَأْمُرُ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ أَنْ تُنْبِتَ فَتُنْبِتُ، وَتَتْبَعُهُ كُنُوزُ الْأَرْضِ، وَيَقْطَعُ الْأَرْضَ بِسُرْعَةٍ عَظِيمَةٍ كَسُرْعَةِ الْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ.. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْخَوَارِقِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَعْظُمُ الْفِتْنَةُ بِهَا.

وَلِعِظَمِ فِتْنَتِهِ، وَكَثْرَةِ مَنْ يَكْفُرُ بِسَبَبِهِ؛ فَإِنَّهُ مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ ذِكْرًا لَهُ وَتَحْذِيرًا مِنْهُ، حَتَّى أَنَّهُ . عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . ذَكَرَهُ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ؛ حَتَّى ظَنَّهُ الصَّحَابَةُ . رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ . فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ.

وَقَدْ ذُكِرَ لِلدَّجَّالِ صِفَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ؛ لِتَعْرِيفِ النَّاسِ بِهِ، وَتَحْذِيرِهِمْ مِنْ شَرِّهِ؛ حَتَّى إِذَا خَرَجَ عَرَفَهُ الْمُؤْمِنُونَ؛ فَلَمْ يَفْتَتِنُوا بِهِ.

فَمِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ: أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، شَابٌّ أَحْمَرُ، قَصِيرٌ الْأَفْحَجُ، جِفَالُ الشَّعْرِ . أَيْ: كَثِيرُهُ . جَعْدُ الشَّعْرِ، أَجْلَى الْجَبْهَةِ، عَرِيضُ النَّحْرِ، مَطْمُوسُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، وَهَذِهِ الْعَيْنُ لَيْسَتْ نَاتِئَةً بَارِزَةً، وَلَا غَائِرَةً جَحْرَاءَ، كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِئَةٌ، فِيهِ انْحِنَاءٌ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ (كَافِرٌ) بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ بِدُونِ تَقْطِيعٍ، يَقْرَؤُهَا كُلُّ مُسْلِمٍ كَاتِبٍ أَوْ غَيْرِ كَاتِبٍ، وَمِنْ صِفَاتِهِ أَنَّهُ عَقِيمٌ لَا يُولَدُ لَهُ.

وَهُوَ حَيٌّ مَوْجُودٌ الْآنَ، قَدْ رَآهُ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ . رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . فِي بَعْضِ جُزُرِ الْبَحْرِ، فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . بِذَلِكَ، فَأَقَرَّهُ . عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَلَيْسَ هُوَ ابْنَ الصَّيَّادِ الَّذِي كَانَ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فِي أَصَحِّ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

أَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي (صَحِيحِهِ) عَنِ النَّبِيِّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَنَّهُ قَالَ كَمَا فِي (حَدِيثِ الْجَسَّاسَةِ): «أَلَا إِنَّهُ . يَعْنِي

الدَّجَّالَ ـ فِي بَحْرِ الشَّامِ أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ، لَا، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ ـ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ ـ».

فَهُوَ يَخْرُجُ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ، مِنْ خُرَاسَانَ، مِنْ يَهُودِيَّةِ أَصْبَهَانَ؛ كَمَا فِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: «يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مِنْ أَرْضٍ بِالْمَشْرِقِ يُقَالُ لَهَا: خُرَاسَانُ».

وَفِي (الْمُسْنَدِ) وَغَيْرِهِ عَنْ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: «يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مِنْ يَهُودِيَّةِ أَصْبَهَانَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْيَهُودِ»، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ: «فَيَكُونُ بَدْءُ ظُهُورِهِ مِنْ أَصْبَهَانَ، مِنْ حَارَةٍ يُقَالُ لَهَا: الْيَهُودِيَّةُ».

فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ.

وَقَدْ سَأَلَ الصَّحَابَةُ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَنِ الْيَوْمِ الَّذِي كَسَنَةٍ: كَيْفَ الصَّلَاةُ فِيهِ؟ فَقَالَ: «اقْدِرُوا لَهُ قَدْرَهُ» أَيْ: قَدِّرُوا قَدْرَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِكُمُ الْمَعْهُودَةِ، وَصَلُّوا فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ بِقَدْرِ سَاعَاتِهِ.

وَأَمَّا أَتْبَاعُ الدَّجَّالِ فَأَكْثَرُهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالْعَجَمِ وَالتُّرْكِ، وَيَتْبَعُهُ أَخْلَافٌ مِنَ النَّاسِ غَالِبُهُمُ الْأَعْرَابُ وَالنِّسَاءُ.

وَيَكُونُ هَلَاكُهُ عَلَى يَدِ الْمَسِيحِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ . عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ .؛ وَذَلِكَ أَنَّ الدَّجَّالَ يَظْهَرُ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، وَيَكْثُرُ أَتْبَاعُهُ، وَتَعُمُّ الْفِتْنَةُ بِهِ؛ فَلَا يَنْجُو مِنْ فِتْنَتِهِ إِلَّا قِلَّةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

عِنْدَ ذَلِكَ يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . عَلَيْهِ السَّلَامُ . عَلَى الْمَنَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ بِدِمَشْقَ، فَيَلْتَفُّ حَوْلَهُ عِبَادُ اللهِ الْمُؤْمِنُونَ، فَيَسِيرُ بِهِمْ نَحْوَ الدَّجَّالِ، وَيَكُونُ الدَّجَّالُ عِنْدَئِذٍ قَدْ تَوَجَّهَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَيُدْرِكُهُ عِيسَى . عَلَيْهِ السَّلَامُ . عِنْدَ بَابِ (لُدٍّ) . وَهِيَ بَلْدَةٌ فِي فِلَسْطِينَ قُرْبَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ .، فَإِذَا رَآهُ الدَّجَّالُ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ، فَيَقُولُ عِيسَى . عَلَيْهِ السَّلَامُ .: «إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً لَنْ تَفُوتَنِي»، فَيَتَدَارَكُهُ عِيسَى . عَلَيْهِ السَّلَامُ .، فَيَقْتُلُهُ بِحَرْبَتِهِ.

ثُمَّ يَنْهَزِمُ أَتْبَاعُهُ، فَيَتْبَعُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَيَقْتُلُونَهُمْ، حَتَّى لَا يَبْقَى شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا وَهُوَ يَقُولُ: «يَا عَبْدَ اللهِ، يَا مُسْلِمُ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي؛ تَعَالَ فَاقْتُلْهُ. إِلَّا الْغَرْقَدَ؛ فَهُوَ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ».

عِبَادَ اللهِ، قَدْ وَرَدَ الْأَمْرُ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ ـ كَمَا تَعْلَمُونَ ـ، وَذَلِكَ يُفِيدُ أَمْرَيْنِ: يُفِيدُ شِدَّةَ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَيُفِيدُ قُرْبَ خُرُوجِهِ.

فَفِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ، لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ».

وَقَدْ جَاءَتِ السُّنَّةُ الْمُطَهَّرَةُ بِبَيَانِ الْأُمُورِ الَّتِي تَعْصِمُ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ـ بِإِذْنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ.

فَمِنْ ذَلِكَ: حِفْظُ عَشْرِ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ (سُورَةِ الْكَهْفِ)؛ فَقَدْ ثَبَتَ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ؛ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ» أَيْ: مِنْ فِتْنَتِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: ابْتِعَادُ الْمُسْلِمِ عَنْهُ إِذَا سَمِعَ بِهِ؛ فَفِي (التِّرْمِذِيِّ) وَغَيْرِهِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: «مَنْ سَمِعَ مِنْكُمْ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ؛ فَوَاللهِ إِنَّ

الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتْبَعُهُ؛ مِمَّا يَبْعَثُ مِنَ الشُّبُهَاتِ».

وَمِمَّا يَعْصِمُ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ: سُكْنَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ؛ فَإِنَّهُمَا مَحْرُوسَتَانِ لَا يَسْتَطِيعُ دُخُولَهُمَا؛ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ.

وَإِنَّ بَثَّ أَحَادِيثِ الدَّجَّالِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ لَمِمَّا يُعِينُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَالتَّوَقِّي مِنْ فِتْنَتِهِ، وَلِذَا؛ كَانَ السَّلَفُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ يَسْتَحِبُّونَ الْإِكْثَارَ مِنَ الْحَدِيثِ عَنْهُ، كَمَا كَانَ رَسُولُكُمْ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَفْعَلُ، بَلْ قَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ: «لَا يَخْرُجُ الدَّجَّالُ حَتَّى يَذْهَلَ النَّاسُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَحَتَّى تَتْرُكَ الْأَئِمَّةُ ذِكْرَهُ عَلَى الْمَنَابِرِ».

فَبُثُّوا أَحَادِيثَهُ بَيْنَ أَهْلِيكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ كَمَا كَانَ السَّلَفُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ؛ لِتَأْمَنُوا فِتْنَتَهُ ـ بِإِذْنِ رَبِّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ.

الْخُطْبَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: حَادِثُ التَّفْجِيرِ

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ سَمِعْتُمْ جَمِيعًا نَبَأَ الْحَادِثِ. حَادِثِ الِانْفِجَارِ. الَّذِي وَقَعَ فِي مَدِينَةِ الرِّيَاضِ، وَسَمِعْتُمُ اسْتِنْكَارَ الْعَالَمِ بِأَجْمَعِهِ لِهَذَا الْحَادِثِ الْأَلِيمِ؛ فَالْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ يَسْتَنْكِرُ هَذَا الْجُرْمَ الْقَبِيحَ وَالْعَمَلَ الْمَقِيتَ.

فَمَنْ يَكُونُ وَرَاءَ هَذَا الْحَادِثِ. إِذَنْ.؟!

إِنَّهُ رَجُلٌ انْسَلَخَ مِنْ دِينِهِ، وَتَجَرَّدَ مِنْ مَعَانِي الْإِنْسَانِيَّةِ؛ فَهُوَ شَيْطَانٌ مَارِدٌ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ، لَا دِينَ يَرْدَعُهُ، وَلَا خُلُقَ يَدْفَعُهُ، لَا شَفَقَةَ وَلَا رَحْمَةَ، وَلَا رَأْفَةَ وَلَا عَطْفَ؛ ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٢٠٦].

مُفْسِدٌ فِي الْأَرْضِ ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الْمَائِدَةِ: ٦٤]، ظَالِمٌ ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٥٧، ١٤٠]، مُعْتَدٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٩٠، الْمَائِدَةِ: ٨٧]، خَائِنٌ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الْأَنْفَالِ: ٥٨].

عِبَادَ اللهِ، أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا؛ فَإِنَّ اللهَ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِهِ بِهِ، سَوْفَ يَنْكَشِفُ الْمُجْرِمُ، وَسَوْفَ يَحْصُلُ لَنَا ثَوَابُ الْمُصِيبَةِ، وَسَوْفَ

نَأْخُذُ الْعِبَرَ وَالْعِظَاتِ مِنْ هَذَا الْحَادِثِ الْأَلِيمِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْحَادِثَ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ الشَّرَّ الْمَحْضَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ ـ تَعَالَى ـ رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ؛ فَلَا يُخْلِيهِ مِنْ فَائِدَةٍ تَعُودُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي دِينِهَا أَوْ دُنْيَاهَا، كَمَا وَقَعَ ذَلِكَ فِي حَادِثِ الْإِفْكِ، قَالَ ـ تَعَالَى ـ: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النُّورِ: ١١].

لَقَدِ اشْتَمَلَ هَذَا الْحَادِثُ الْمُرَوِّعُ عَلَى جَرَائِمَ عَدِيدَةٍ وَأَعْمَالٍ شَنِيعَةٍ؛ اشْتَمَلَ عَلَى إِتْلَافِ الْأَنْفُسِ، وَإِتْلَافِ الْأَمْوَالِ، وَتَرْوِيعِ الْآمِنِينَ، وَإِخْلَالِ أَمْنِ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

كَيْفَ يُقْدِمُ مُسْلِمٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا وَاللهُ ـ تَعَالَى ـ يَقُولُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النِّسَاءِ: ٩٣]؟!

كَيْفَ يُقْدِمُ مُسْلِمٌ عَلَى قَتْلِ كَافِرٍ مُعَاهَدٍ دَخَلَ دِيَارَنَا بِأَمَانٍ أَوْ هُدْنَةٍ وَالنَّبِيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا؛ لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»،

أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو؟! وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي (الْمُسْنَدِ) عَنْ أَبِي بَكْرَةَ . رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . أَنَّ النَّبِيَّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدَةً؛ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ أَنْ يَشُمَّ رِيحَهَا».

كَيْفَ يُقْدِمُ مُسْلِمٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ عَلَى تَرْوِيعِ الْآمِنِينَ وَالنَّبِيُّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . يَقُولُ كَمَا فِي (الْمُسْنَدِ) وَغَيْرِهِ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا»؟!

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ هَذِهِ الْبِلَادَ - بِحَمْدِ اللهِ - بِلَادُ أَمْنٍ وَاسْتِقْرَارٍ، بِلَادٌ قَامَتْ عَلَى دِينِ اللهِ، وَنَشَأَتْ تَدْعُو إِلَى اللهِ - جَلَّ وَعَلَا -، قَامَتْ دَاعِيَةً إِلَى التَّوْحِيدِ، مُخْلِصَةً لِلَّهِ، آمِرَةً بِالْمَعْرُوفِ نَاهِيَةً عَنِ الْمُنْكَرِ، طَاهِرَةٌ مِنْ كُلِّ مَظَاهِرِ الشِّرْكِ وَالْإِلْحَادِ، وَهَذَا هُوَ سِرُّ أَمْنِهَا وَاسْتِقْرَارِهَا؛ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الْأَنْعَامِ: ٨٢].

فَنَحْنُ - بِحَمْدِ اللهِ - فِي نِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ خَصَّنَا اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - بِهَا دُونَ أَكْثَرِ الْبَشَرِ فِي هَذَا الزَّمَنِ؛ فَدِينُ اللهِ قَائِمٌ، وَشَرْعُهُ مُحَكَّمٌ، وَالْأَمْنُ مُسْتَتِبٌّ، وَالْعَيْشُ رَغِدٌ، وَالْأَسْعَارُ رَخِيصَةٌ.. وَهَلُمَّ جَرًّا مِنْ مَظَاهِرِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ.

فَوَاجِبُنَا جَمِيعًا أَنْ نُحَافِظَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَأَنْ نَرْعَاهَا، بِشُكْرِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا - لَهَا، وَبِصَرْفِهَا فِيمَا يُرْضِيهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَنَّا، وَأَنْ نَكُونَ يَدًا وَاحِدَةً مَعَ قَادَتِنَا فِي حِمَايَةِ أَمْنِ هَذَا الْبَلَدِ وَاسْتِقْرَارِهِ، وَالْأَخْذِ عَلَى يَدِ الْعَابِثِينَ بِهَذَا الْأَمْنِ كَائِنًا مَنْ كَانُوا، وَبِذَلِكَ نُرْضِي رَبَّنَا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وَنُؤَدِّي الْوَاجِبَ الَّذِي افْتَرَضَهُ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَلَيْنَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، اضْرِبُوا الْأَرْضَ - شَرْقًا وَغَرْبًا، وَجَنُوبًا وَشَمَالًا - هَلْ تَجِدُونَ مِثْلَ هَذِهِ الْبِلَادِ؟!

لَا - وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ - لَا نَجِدُ مِثْلَهَا؛ لَا فِي دِينِهَا، وَلَا فِي اسْتِقْرَارِهَا، وَلَا فِي رَغَدِ عَيْشِهَا.

فَمَاذَا يُرِيدُ الْعَابِثُونَ؟! وَمَاذَا يَطْلُبُونَ؟!! أَبَلَغَ بِهِمُ الْحِقْدُ وَالْحَسَدُ إِلَى هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ: أَنْ يَعْتَدُوا عَلَى الْآمِنِينَ، وَيُخِلُّوا بِأَمْنِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ؟!!!

لَا شَكَّ أَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلَا - لَهُمْ بِالْمِرْصَادِ؛ سَوْفَ يَنْتَقِمُ مِنْهُمُ انْتِقَامًا عَاجِلًا وَآجِلًا.

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ - تَعَالَى - كُلَّ وَقْتٍ وَحِينٍ، وَأَنْ نَسْأَلَهُ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا أَنْ يُعَجِّلَ بِكَشْفِ هَؤُلَاءِ، وَأَنْ يُمَكِّنَ مِنْهُمْ، وَأَنْ يُمَكِّنَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْجُبَنَاءِ؛ لِيُقِيمَ الشَّرْعُ الْمُطَهَّرُ عَلَيْهِمْ حَدَّهُ، وَيُطَهِّرَهُمْ مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ الَّذِي اقْتَرَفُوهُ.

فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، وَاجِبُ كُلِّ مُؤْمِنٍ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مِنْ أَهْلِهَا أَوْ مِنْ خَارِجِهَا أَنْ يَسْعَى مَعَ الْوُلَاةِ فِي الْبَحْثِ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ؛ فَإِذَا وَجَدَ خَبَرًا عَنْهُمْ نَبَّأَ بِهِمْ فَوْرًا؛ احْتِسَابًا وَطَلَبًا لِلثَّوَابِ مِنَ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ؛ تَوَجَّهَ إِلَى سِهَامِ اللَّيْلِ، وَدَعَا اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَنْ يُسَهِّلَ كَشْفَ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ.

وَأَبْشِرُوا؛ فَإِنَّ الدَّعْوَةَ مُسْتَجَابَةٌ - إِنْ شَاءَ اللهُ -؛ لِأَنَّهَا دَعْوَةُ مَظْلُومٍ، وَ«دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ» كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ -. (١)

---

(١) الخطبة الثانية غير متوفرة لديَّ.

الْخُطْبَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ:

حُسْنُ الْخُلُقِ

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بُعِثَ لِلْبَشَرِيَّةِ لِيُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ؛ فَمَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنُ الْأَخْلَاقِ يَنْبَنِي عَلَيْهَا كُلُّ أَمْرٍ حَسَنٍ مَحْمُودٍ؛ فَالْأَخْلَاقُ تَكُونُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَتَكُونُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ.

فَحُسْنُ الْخُلُقِ مَعَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - يَكُونُ بِتَوْحِيدِهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَالْإِيمَانِ بِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -. وَحُسْنُ الْخُلُقِ مَعَ النَّاسِ يَكُونُ بِإِصْلَاحِ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مِنْ أُمُورٍ: بِبَذْلِ الْمَعْرُوفِ إِلَيْهِمْ، وَكَفِّ الْأَذَى عَنْهُمْ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ.

وَحُسْنُ الْخُلُقِ - أَيُّهَا الْإِخْوَةُ - مِنْ خَصَائِصِ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَجْمَعُ فِيهِ بَيْنَ ذَاتِ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ وَبَيْنَ نِيَّةِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِهَا؛ فَالْأَخْلَاقُ فِي دِينِنَا شَأْنُهَا عَظِيمٌ، وَمَنْزِلُنَا كَبِيرَةٌ.

سُئِلَ رَسُولُ اللهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عَنْ أَفْضَلِ الْإِيمَانِ فَقَالَ: «حُسْنُ الْخُلْقِ».

وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ فَقَالَ: «تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ».

وَأَخْبَرَ أَنَّ أَثْقَلَ مَا يُوضَعُ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُوَ حُسْنُ الْخُلُقِ.

وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمَرْءَ يُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ مَنْزِلَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ.

وَقَدْ جَعَلَ الْإِسْلَامُ لِلْأَخْلَاقِ قَوَاعِدَ مَنِ الْتَزَمَهَا وَقَامَ بِهَا؛ فَقَدْ وُفِّقَ لِلظَّفَرِ بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ وَسَعِدَ بِهَا؛ فَفِي وَصِيَّةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لِأَبِي ذَرٍّ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - أَنَّهُ قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»، فَهَذِهِ قَوَاعِدُ لِلْأَخْلَاقِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُ.

فَأَوَّلُ ذَلِكَ: خُلُقُهُ مَعَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: بِأَنْ يَحْسُنَ بَاطِنُهُ، وَيَجْعَلَ قَلْبَهُ مُخْلِصًا لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فَيَتَّقِي اللهَ فِي أَيِّ مَكَانٍ كَانَ، وَفِي

أَيِّ مَوْضِعٍ كَانَ، إِنَّ قَلْبَهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ اللهَ ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طَهَ: ٧].

ثُمَّ إِذَا وَقَعَتْ مِنَ الْمُسْلِمِ هَنَةٌ أَوْ زَلَّةٌ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يُتْبِعَهَا بِمَا يَمْحُوهَا؛ لِأَنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ، وَقَدْ جَعَلَ مِنْ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ الْخَطَأَ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ؛ فَإِذَا وَقَعَ فِي سَيِّئَةٍ أَتْبَعَهَا بِحَسَنَةٍ: إِمَّا بِالتَّوْبَةِ مِنْهَا، أَوْ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُكَفِّرُ صَغَائِرَ الذُّنُوبِ.

ثُمَّ ذَكَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْقَاعِدَةَ الثَّالِثَةَ: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»، وَمُخَالَقَةُ النَّاسِ بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ تَكُونُ: بِصِدْقِ الْوَعْدِ مَعَهُمْ، وَبِعَدَمِ الْكَذِبِ عَلَيْهِمْ، وَبِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَإِقَالَةِ عَثْرَةِ مَنْ عَثَرَ مِنْهُمْ.. وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَجْمَعُهُ مَعْنَى حُسْنِ الْخُلُقِ.

فَالْمَرْءُ الْمُسْلِمُ هُوَ الَّذِي يُعَامِلُ النَّاسَ بِمَا يُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوهُ بِهِ؛ فَهَذَا هُوَ كَمَالُ الْإِيمَانِ، وَلِهَذَا؛ قَالَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَمَا فِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا».

فَحَسَنُ الْخُلُقِ يُعَامِلُ النَّاسَ بِمَا يُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوهُ بِهِ؛ فَلَا يَكْذِبُ بَلْ يَصْدُقُ، وَلَا يَغُشُّ، وَلَا يَخُونُ بَلْ يَكُونُ أَمِينًا.. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَانِي الْحَسَنَةِ الَّتِي قَرَّرَهَا الْإِسْلَامُ وَبَنَاهَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، لَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ وَالْقُرُونِ الْمُفَضَّلَةِ عَلَى أَتَمِّ الْأَخْلَاقِ وَأَكْمَلِهَا وَأَحْسَنِهَا، وَلِذَا؛ كَانَ الْمُجْتَمَعُ مَلِيئًا بِالسُّرُورِ وَالسَّعَادَةِ: يَحْنُو بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيُحِبُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ غَرَسَ فِيهِمُ الْأَخْلَاقَ الْحَسَنَةَ الْكَرِيمَةَ؛ فَامْتَثَلُوا لِهَذِهِ الْأَوَامِرِ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَمِنْ رَسُولِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -؛ فَأَصْبَحُوا مِثَالًا يُضْرَبُ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ؛ فَكَانَ مُجْتَمَعُهُمْ مُجْتَمَعًا مِثَالِيًّا: يَعْلُو فِيهِ كُلُّ أَمْرٍ مَحْمُودٍ، وَيَخْتَفِي عَنْهُ كُلُّ أَمْرٍ مَذْمُومٍ.

أَمَّا لَمَّا غَيَّرَ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ؛ فَسَاءَتْ مِنْهُمُ الْأَخْلَاقُ، وَتَقَاعَسُوا عَنِ الْقِيَامِ بِالْآثَارِ الَّتِي أَرْشَدَتْهُمْ إِلَيْهَا الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ؛ فَإِنَّ الْبَغْضَاءَ وَالشَّحْنَاءَ وُلِدَتْ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ، وَفَشَتْ فِيهِمْ مِنَ الْأَخْلَاقِ الَّتِي لَا يَقْبَلُهَا الْإِسْلَامُ وَلَا يَرْضَاهَا مَا لَا يَعْلَمُ بِهِ إِلَّا اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، اتَّقُوا اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَارْجِعُوا إِلَى أَخْلَاقِكُمُ الَّتِي أَمَرَكُمْ بِهَا الْإِسْلَامُ.

وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ عَلَى خُلُقِ الْإِسْلَامِ؛ فَلْيَحْمَدِ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَلْيَسْتَكْثِرْ بِالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ وَالِاسْتِمْرَارِ.

وَمَنْ عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ نَقْصًا؛ فَلَا يُضَيِّعَنَّ عَلَى نَفْسِهِ ثَوَابًا عَظِيمًا جَعَلَهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي حُسْنِ الْخُلُقِ؛ فَإِنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ عِبَادَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ إِذَا قَصَدَ بِهَا الْمُسْلِمُ وَجْهَ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -؛ فَهِيَ تَفْضُلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ يَقُومُونَ اللَّيْلَ وَيَصُومُونَ النَّهَارَ؛ لِأَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ وَصِيَامَ النَّهَارِ عِبَادَةٌ مُؤَقَّتَةٌ تَنْتَهِي، أَمَّا حُسْنُ الْخُلُقِ فَإِنَّهُ مُسْتَمِرٌّ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظَاتِ حَيَاتِهِ.

يَقُولُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مُبَيِّنًا مَنْزِلَةَ مَنْ هُوَ حَسَنُ الْأَخْلَاقِ: «إِنَّ أَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْمُتَفَيْهِقُونَ. قَالُوا: قَدْ عَرَفْنَا - يَا رَسُولَ اللهِ - الْمُتَشَدِّقِينَ وَالثَّرْثَارِينَ، فَمَنْ هُمُ الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ».

فَكُلُّ مَنْ تَرَكَ الْأَخْلَاقَ الْحَسَنَةَ؛ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، إِنَّ قِيمَةَ كُلِّ مُجْتَمَعٍ بِثَقَافَةِ أَخْلَاقِهِ؛ فَإِنْ كَانَتْ أَخْلَاقُهُ عَالِيَةً كَانَ مُجْتَمَعًا رَاقِيًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ مُجْتَمَعٌ غَيْرُ مَرْغُوبٍ فِيهِ، أَوْ مَا يُسَمَّى بِـ(الْمُجْتَمَعِ الْمُتَقَلِّبِ).

وَنَحْنُ - مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ - قَدْ جُمِعَتْ لَنَا الْأَخْلَاقُ الْحَسَنَةُ، وَوُزِّنَتْ لَنَا تَوْزِينًا دَقِيقًا فِي كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ؛ فَلَمْ يُتَوَفَّ رَسُولُ اللهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - إِلَّا وَقَدْ دَلَّنَا عَلَى كُلِّ خَيْرٍ وَنَهَانَا عَنْ كُلِّ شَرٍّ؛ فَتَرَكَنَا - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - «عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ»، وَمِنْ ذَلِكَ: مَوْضُوعُ الْأَخْلَاقِ.

قَالَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي وَصْفِ نَبِيِّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الْقَلَمِ: ٤].

وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - عَنْ خُلُقِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَالَتْ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ».

وَعَلَيْهِ؛ مَنْ عَمِلَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَبِالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ؛ فَإِنَّ أَخْلَاقَهُ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ، وَهُوَ أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا.

وَمَنِ انْتَقَصَ مِنْ أَوَامِرِ اللهِ شَيْئًا، أَوْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فَقَدِ انْتَقَصَ خُلُقَهُ بِحَسَبِ مَا انْتَقَصَ مِنْ دِينِهِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، لَمَّا أَدْرَكَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ أَنَّ كَمَالَ الْمُؤْمِنِينَ فِي حُسْنِ خُلُقِهِمْ؛ كَادُوا لَهُمْ، وَوَضَعُوا لَهُمُ الْحَبَائِلَ؛ لِصَدِّهِمْ عَنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ؛ فَأَجْلَبَتْ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَى أَخْلَاقِ الْمُسْلِمِينَ بِكُلِّ مَا أُوتُوا مِنْ سِلَاحٍ فَتَّاكٍ مَعْنَوِيًّا كَانَ أَوْ مَحْسُوسًا.

فَبَثَّ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَا يُغْرِيهِمْ مِنَ الشَّهَوَاتِ الضَّالَّةِ؛ لِيَصْرِفُوهُمْ عَنْ حُسْنِ الْخُلُقِ الَّذِي رَبَّاهُمُ الْإِسْلَامُ عَلَيْهِ، وَلِلْأَسَفِ وَقَعَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْحَبَائِلِ، وَاصْطَادَهُمُ الشَّيْطَانُ؛ فَإِنَّهُ لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، اتَّقُوا اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، وَحَقِّقُوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ الْإِسْلَامُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَنْخَدِعُوا بِمَا يَنْصِبُهُ الشَّيْطَانُ لَكُمْ مِنْ حِبَالٍ؛ لِيَصْرِفَكُمْ عَنِ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، أَوْ يَنْصِبُهَا لَكُمْ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ مِنْ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْكَفَرَةِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سُوءٌ مَنْ وَقَعَ فِيهِ فَقَدْ وَقَعَ فِي سُوءٍ عَظِيمٍ.

وَلْيَتَأَمَّلِ الْمُسْلِمُ قَوْلَ أَحَدِ السَّلَفِ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ -: «مِسْكِينٌ مَنْ بَاعَ الْجَنَّةَ بِمَا فِيهَا بِشَهْوَةِ سَاعَةٍ»؛ فَالشَّهْوَةُ الْمُحَرَّمَةُ يَتَلَذَّذُ بِهَا الْإِنْسَانُ ظَاهِرًا لِلَحَظَاتٍ أَوْ سُوَيْعَاتٍ، ثُمَّ تَنْقَضِي؛ فَتَعُودُ حَسْرَةُ الذَّنْبِ وَشُؤْمُ الذَّنْبِ عَلَيْهِ بِظُلُمَاتٍ عَظِيمَةٍ، وَبِقَسْوَةٍ فِي قَلْبِهِ، وَبِكَسَلٍ وَهَمٍّ وَنَكَدٍ وَكَآبَةٍ؛ ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النَّبَأ: ٢٦]؛ لِأَنَّهُ عَصَى اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طَهَ: ١٢٤].

نَسْأَلُ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يُصْلِحَ أَخْلَاقَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لِلِاعْتِصَامِ بِكِتَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَبِسُنَّةِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -.

الْخُطْبَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ:

حُقُوقُ الْجَارِ

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ رَتَّبَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ لِلْجِيرَانِ حُقُوقًا كَثِيرَةً، رَغَّبَ فِي أَدَائِهَا، وَرَهَّبَ مِنْ تَضْيِيعِهَا؛ فَمَنْ قَامَ بِهَا حَقَّ الْقِيَامِ؛ فَقَدْ

عَظَّمَ شَعَائِرَ اللهِ، ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الْحَجِّ: ٣٢]، وَمَنْ فَرَّطَ فِيهَا؛ فَقَدْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى وَظَلَمَ، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطَّلَاقِ: ١].

إِنَّ الشَّارِعَ الْحَكِيمَ أَمَرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْجِيرَانِ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْجِيرَانِ يَشْمَلُ كُلَّ أَوْجُهِ الْإِحْسَانِ: مِنَ الْخُلُقِ الرَّفِيعِ، وَالْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ، وَقَضَاءِ الْحَوَائِجِ، وَالْوُقُوفِ مَعَهُ فِي النَّوَائِبِ وَالْمَكْرُوهَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

يَقُولُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَمَا فِي (الصَّحِيحَيْنِ): «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ».

وَفِي (الصَّحِيحَيْنِ) (١) أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ. قِيلَ: مَنْ - يَا رَسُولَ اللهِ -؟ قَالَ: مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»، فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ تَحْذِيرٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ أَنْ يَتَعَدَّى عَلَى جَارِهِ، وَأَنْ يُفَرِّطَ فِي حُقُوقِهِ، بِجَلْبِ أَذًى إِلَيْهِ، أَوْ دَفْعِ خَيْرٍ عَنْهُ.

وَقَدْ جَعَلَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ لِلْجَارِ مَنْزِلَةً أُخْرَى عَظِيمَةً فِي صُورَةٍ ثَانِيَةٍ؛ وَهِيَ أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ظَنَّ أَنَّ الْجَارَ سَيَرِثُ جَارَهُ؛ مِنْ كَثْرَةِ إِيصَاءِ جِبْرِيلَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لِلنَّبِيِّ -

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْجَارِ؛ فَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَالَ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ» أَيْ: أَنَّهُ سَيَجْعَلُ الْجَارَ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ الْمِيرَاثِ.

عِبَادَ اللهِ، هُنَاكَ خَصْلَةٌ بَدَأَتْ فِي الِانْقِرَاضِ؛ وَهِيَ الْإِهْدَاءُ إِلَى الْجِيرَانِ، فَإِنَّ التَّهَادِيَ بَيْنَ الْجِيرَانِ يُورِثُ الْمَحَبَّةَ، وَيَنْزِعُ الضَّغَائِنَ، وَيُزِيلُ الْأَحْقَادَ، وَلِذَا؛ فَإِنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَوْصَى أَبَا ذَرٍّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - إِذَا طَبَخَ مَرَقَةً أَنْ يُكْثِرَ مَاءَهَا، وَأَنْ يَتَعَاهَدَ جِيرَانَهُ بِهَا، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ).

وَثَبَتَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «لَا تَحْقِرَنَّ امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ مَعْرُوفًا لِجَارَتِهَا وَلَوْ كَانَ فِرْسِنَ شَاةٍ» أَوْ كَمَا قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -. وَ(فِرْسِنُ الشَّاةِ) هُوَ عَظْمُهَا الَّذِي فِيهِ لَحْمٌ قَلِيلٌ.

(١) في المادة الصوتية ذكر الشيخ أن هذا الحديث في (المسند) و(سنن الترمذي) وغيرهما عن ابن عمر، ثم ذكر أنه في (المسند) وغيره، ثم نبه في بداية الخطبة الثانية أن هذا الحديث في (الصحيحين)؛ فأثبتُّ الصحيح هنا، ولم أثبت تنبيه الشيخ في الخطبة الثانية. وإنما ذكرتُ ذلك؛ ليكون صورةً تُظْهِرُ ما كان من حرصِ الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - وأمانتِهِ العلميَّةِ.

فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَهَادَوْا مَعَ جِيرَانِهِمْ؛ لِيَتَحَقَّقَ الْمَقْصُودُ مِنْ بَقَاءِ الْمَحَبَّةِ وَدَوَامِهَا، وَإِزَالَةِ الضَّغْنَاءِ وَالْبَغْضَاءِ مِنْ قُلُوبِهِمْ.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ أَذِيَّةَ الْجَارِ عَظِيمَةٌ كَبِيرَةٌ، وَمُصِيبَةٌ كَبِيرَةٌ، إِثْمُهَا عَظِيمٌ مُضَاعَفٌ.

وَلِذَا؛ فَإِنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - جَعَلَ الِاعْتِدَاءَ عَلَى عِرْضِ الْجَارِ أَعْظَمَ مِنَ الِاعْتِدَاءِ عَلَى عِرْضِ غَيْرِهِ، وَجَعَلَ السَّرِقَةَ مِنَ الْجَارِ أَعْظَمَ مِنَ السَّرِقَةِ مِنْ غَيْرِهِ؛ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ: «سُئِلَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ؟ فَقَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ. قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ - يَا رَسُولَ اللهِ -؟ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ. قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ - يَا رَسُولَ اللهِ -؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ».

وَثَبَتَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «مَا تَقُولُونَ فِي الزِّنَى؟ قَالُوا: قَدْ حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَقَالَ: لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ. مَا تَقُولُونَ فِي السَّرِقَةِ؟ قَالُوا: قَدْ حَرَّمَهَا اللهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ: لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ بَيْتِ جَارِهِ».

فَاتَّقُوا اللهَ - عِبَادَ اللهِ -، وَارْعَوْا لِلْجِيرَانِ حُرُمَاتِهِمْ، أَدُّوا إِلَيْهِمْ حُقُوقَهُمْ، وَاجْتَنِبُوا أَذِيَّتَهُمْ.

يَقُولُ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النِّسَاءِ: ٣٦].

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ كَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ يُعَظِّمُونَ حَقَّ الْجِوَارِ، وَيَحْتَرِمُونَ الْجَارَ احْتِرَامًا عَظِيمًا، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ مُقِرًّا لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَجَاعِلًا ذَلِكَ مِنْ مُكَمِّلَاتِ الْإِيمَانِ، وَمِنْ خِصَالِهِ الْحَمِيدَةِ.

وَلَيْسَ حَقُّ الْجِوَارِ كَفَّ الْأَذَى فَحَسْبُ؛ وَإِنَّمَا حَقُّ الْجِوَارِ كَفُّ الْأَذَى عَنِ الْجَارِ، وَاحْتِمَالُ الْأَذَى عَنِ الْجَارِ؛ كَمَا قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ - رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى -.

فَاتَّقُوا اللهَ - جَلَّ وَعَلَا - عِبَادَ اللهِ -، وَأَحْسِنُوا إِلَى جِيرَانِكُمْ، وَاجْتَنِبُوا الْإِسَاءَةَ إِلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَفِي أَهْلِيهِمْ وَفِي أَبْنَائِهِمْ؛ تُفْلِحُوا وَتَسْعَدُوا فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

الْخُطْبَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ:

خَطَرُ أَذِيَّةِ الْمُؤْمِنِينَ

يَقُولُ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الْأَحْزَابِ: ٥٨].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ - يَا عِبَادَ اللهِ - يُبَيِّنُ اللهُ - تَعَالَى - شَنَاعَةَ وَبَشَاعَةَ جَرِيمَةِ أَذِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ بِمَا رَتَّبَهُ عَلَيْهَا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مِنَ الْعُقُوبَةِ الْغَلِيظَةِ، وَمَا وَصَفَهَا بِهِ مِنَ الْبُهْتَانِ وَالْإِثْمِ الْمُبِينِ؛ فَهِيَ جَرِيمَةٌ عَنِيفَةٌ تَتَجَلَّى فِيهَا أَقْبَحُ صُوَرِ الظُّلْمِ

وَالْعُدْوَانِ، وَتَظْهَرُ مِنْ خِلَالِهَا خَسَاسَةُ نَفْسِ الْمُؤْذِي بِغَيْرِ حَقٍّ، وَقِلَّةُ دِيَانَتِهِ؛ إِذْ أَنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - جَعَلَ لِلْمُسْلِمِ حُرْمَةً، مَنْ تَخَطَّاهَا بِغَيْرِ حَقٍّ شَرْعِيٍّ؛ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِغَضَبِ اللهِ - تَعَالَى - وَمَقْتِهِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»؛ فَالْمُسْلِمُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَذَاهُ عَنْ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ، سَوَاءٌ مَا يَصْدُرُ عَنِ الْيَدِ مِنَ الْأَذِيَّةِ بِالضَّرْبِ وَنَحْوِهِ، أَوْ مَا يَصْدُرُ عَنِ اللِّسَانِ مِنَ الْأَذِيَّةِ بِالْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَنَحْوِهِمَا.

وَفِي الصَّحِيحِ - أَيْضًا - مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»؛ فَمَنْ آذَى مُؤْمِنًا أَوْ مُؤْمِنَةً بِغَيْرِ حَقٍّ؛ فَقَدْ شَاقَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، لَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، وَلَا يَسَّرَ اللهُ - تَعَالَى - لَهُ هَذَا الْأَمْرَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، وَكُلَّمَا كَانَتِ الْأَذِيَّةُ أَشَدَّ كُلَّمَا كَانَ إِثْمُهَا أَعْظَمَ وَأَكْبَرَ.

وَمِنْ أَشْنَعِ أَذِيَّةِ الْمُسْلِمِ: الِافْتِرَاءُ عَلَيْهِ، وَإِلْصَاقُ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ بِهِ لَمْ يَقُلْهُ وَلَمْ يَفْعَلْهُ؛ لِيَكُونَ هَذَا الْإِلْصَاقُ وَهَذَا الِافْتِرَاءُ سَبَبًا لِعَيْبِهِ وَتَنَقُّصِهِ عِنْدَ النَّاسِ.

يَقُولُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾: «﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أَيْ: يَنْسُبُونَ إِلَيْهِمْ مَا هُمْ بَرَاءٌ مِنْهُ لَمْ يَعْمَلُوهُ وَلَمْ يَفْعَلُوهُ، ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، وَهَذَا هُوَ الْبَهْتُ الْكَبِيرُ: أَنْ يَحْكِيَ أَوْ يَنْقُلَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مَا لَمْ يَفْعَلُوهُ عَلَى سَبِيلِ الْعَيْبِ وَالنَّقْصِ لَهُمْ».

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ - رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى - عَلَى قَوْلِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾: «هِيَ لِكُلِّ مُفْتَرٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: غَضَبٌ مِنَ اللهِ يَنَالُهُ، وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ جَزَاءً لَهُ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ؛ إِذْ أَرَادَ إِذْلَالَ الْمُسْلِمِ بِمَا افْتَرَى عَلَيْهِ».

وَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ الْأَصْبَهَانِيُّ وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ - مَوْقُوفًا عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ: «أَيُّمَا امْرِئٍ أَشَاعَ عَلَى امْرِئٍ مُسْلِمٍ كَلِمَةً وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ لِيَشِينَهُ بِهَا؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُعَذِّبَهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ، حَتَّى يَأْتِيَ بِنَفَاذِ مَا قَالَ»، فَتَأَمَّلْ هَذَا الْأَثَرَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا يُقَالُ مِنْ قِبَلِ الرَّأْيِ؛ لِتَعْلَمَ مَنْزِلَةَ الِافْتِرَاءِ عَلَى الْمُؤْمِنِ، وَسُوءَ عَاقِبَةِ مَنْ قَامَ بِهِ وَتَحَمَّلَهُ.

وَيَسْتَوِي فِي الْإِثْمِ مَنِ اخْتَلَقَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَمَنْ أَعَانَ عَلَى نَشْرِهَا دُونَ تَثَبُّتٍ وَتَوَثُّقٍ؛ لِقَوْلِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ -: «الْقَائِلُ كَلِمَةَ الزُّورِ وَالَّذِي يَمُدُّ بِحَبْلِهَا فِي الْإِثْمِ سَوَاءٌ»، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ».

فَلْيَتَّقِ اللهَ الْمُسْلِمُ، وَلَا يُعَرِّضْ نَفْسَهُ لِسَخَطِ اللهِ بِمَا يَقْتَرِفُهُ مِنْ أَذِيَّةِ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَقَدْ يَكُونُ مَنْ أَوْقَعَ عَلَيْهِ الْأَذِيَّةَ بَرًّا تَقِيًّا وَلِيًّا لِلَّهِ - تَعَالَى -؛ فَيَصْدُقُ عَلَى مَنْ آذَاهُ قَوْلُ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا - فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا؛ فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ».

وَلَمَّا مَرَّ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَلَى نَفَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَقَالَ لَهُمْ كَلِمَةً كَأَنَّهُ أَغْلَظَ عَلَيْهِمْ بِهَا، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «يَا أَبَا بَكْرٍ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ؛ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ».

فَهَذَا خِطَابٌ مَعَ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - خَيْرِ مَنْ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، فَكَيْفَ بِمَنْ دُونَهُ؟!

فَكَيْفَ بِالَّذِي يُغْضِبُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِمَا يَتَقَوَّلُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبُهْتَانِ الْوَاضِحِ وَالْكَذِبِ الصَّرِيحِ؟!!

لَا رَيْبَ وَلَا شَكَّ أَنَّ غَضَبَ اللهِ - تَعَالَى - عَلَيْهِ أَحْرَى وَأَوْلَى، وَأَنَّ عِقَابَهُ شَدِيدٌ أَلِيمٌ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «وَمَنْ بَهَتَ مُؤْمِنًا أَوْ مُؤْمِنَةً؛ حَبَسَهُ اللهُ فِي رَدْغَةِ الْخَبَالِ، حَتَّى يَأْتِيَ بِالْمَخْرَجِ».

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، لَقَدْ كَثُرَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ إِيذَاءُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَطَلَبَتِهِ؛ بِمَا يُفْتَرَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الَّذِينَ هُمْ بَرَاءٌ مِنْهَا، وَالَّتِي يَتَوَلَّى كِبْرَهَا دُعَاةُ الْفِتْنَةِ.

فَلْيَحْذَرِ الْمُسْلِمُ أَنْ يُشَاطِرَهُمُ الْإِثْمَ، وَلْيَحْذَرِ الْمُسْلِمُ أَنْ يَسْتَجْلِبَ الْعُقُوبَةَ عَلَى نَفْسِهِ بِمَا يُعِينُهُمْ بِهِ مِنْ نَشْرِ كَلِمَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ، أَوْ خَبَرٍ غَيْرِ مَوْثُوقٍ بِهِ، وَلْيَضَعْ نُصْبَ عَيْنَيْهِ قَوْلَ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وَقَوْلَ الْمَوْلَى - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الْحُجُرَاتِ: ٦].

عِبَادَ اللهِ، وَمِنْ أَشْنَعِ صُوَرِ أَذِيَّةِ الْمُسْلِمِ - أَيْضًا -: أَذِيَّةُ الْجَارِ لِجَارِهِ؛ فَإِنَّ أَذِيَّةَ الْمُسْلِمِ لِلْمُسْلِمِ مَذْمُومَةٌ عُمُومًا، وَتَزْدَادُ مَذَمَّةً وَإِثْمًا إِذَا كَانَ جَارًا لِلْمُؤْذِي؛ لِمَا لِلْجَارِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ فِي الشَّرْعِ؛ إِذْ قَدْ حَثَّ اللهُ عَلَى بِرِّهِ وَمُوَاسَاتِهِ، وَأَمَرَ بِكَفِّ الْأَذَى عَنْهُ؛ يَقُولُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ».

وَفِي الْحَدِيثِ: «وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ. قِيلَ: مَنْ - يَا رَسُولَ اللهِ -؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» أَيْ: شُرُورَهُ وَغَوَائِلَهُ.

وَفِي الْحَدِيثِ - أَيْضًا -: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ».

لَقَدْ تَعَدَّى كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ - هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَى - هَذِهِ الْأَوَامِرَ، وَلَمْ يَكْتَفُوا بِعَدَمِ إِحْسَانِهِمْ إِلَى جِيرَانِهِمْ وَبِرِّهِمْ بِهِمْ؛ بَلْ تَخَطَّوْا ذَلِكَ إِلَى إِيذَائِهِمْ وَمُضَايَقَتِهِمْ بِأَلْوَانٍ مِنَ الْأَذَى.

وَأَشَرُّ النَّاسِ فِي ذَلِكَ مَنْ يَعْتَبِرُ هَذَا الْإِيذَاءَ فَخْرًا، وَيَعُدُّهُ شَجَاعَةً وَبَسَالَةً!!

وَأَيْمُ اللهِ لَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ؛ مَا أَعْظَمَ جَرِيمَتَهُ، وَمَا أَشَدَّ خَسَارَتَهُ!

فَاتَّقُوا اللهَ - تَعَالَى - عِبَادَ اللهِ -، وَتَأَمَّلُوا كَثِيرًا قَوْلَ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النِّسَاءِ: ٣٦].

عِبَادَ اللهِ، وَمِنْ أَذِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ: مُضَايَقَتُهُمْ فِي طُرُقَاتِهِمْ وَشَوَارِعِهِمْ، وَذَلِكَ بِإِلْقَاءِ الْأَذَى فِيهَا مِنَ النُّفَايَاتِ وَالْأَوْسَاخِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ: «إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ».

وَكَذَلِكَ: إِيقَافُ السَّيَّارَاتِ فِيهَا، أَوْ مُضَايَقَةُ النَّاسِ أَثْنَاءَ السَّيْرِ، أَوْ تَرْوِيعُهُمْ بِالسُّرْعَةِ الْجُنُونِيَّةِ، أَوْ إِزْعَاجُهُمْ بِأَصْوَاتِ الْأَبْوَاقِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «مَنْ آذَى الْمُؤْمِنِينَ فِي طُرُقِهِمْ؛ وَجَبَتْ عَلَيْهِ لَعْنَتُهُمْ»، أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَمِنْ أَذِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ: حَبْسُ مُعَامَلَاتِهِمْ لَدَى بَعْضِ الْمَسْؤُولِينَ، وَعَرْقَلَةُ مَصَالِحِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، لَا لِشَيْءٍ سِوَى عَدَمِ الْمُبَالَاةِ!!

وَمِنْ ذَلِكَ: إِفْسَادُ مَحَلَّاتِ الْوُضُوءِ الْعَامَّةِ، وَتَعْطِيلُ مَنَافِعِهَا.

فَكُلُّ ذَلِكَ - يَا عِبَادَ اللهِ - يَدْخُلُ تَحْتَ قَوْلِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الْأَحْزَابِ: ٥٨].

فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَجْتَنِبُوا أَذِيَّةَ إِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ أَيًّا كَانَتْ هَذِهِ الْأَذِيَّةُ، وَلْيَحْذَرِ الْمُسْلِمُ حَذَرًا شَدِيدًا مِنَ الْوُقُوعِ فِي هَذِهِ الْأَذِيَّةِ، وَلْيَكُنْ شَدِيدَ التَّفَقُّدِ لِنَفْسِهِ أَنْ تَقَعَ فِيهَا هَذِهِ الْأَذِيَّةُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ.

وَجَامِعُ الْقَوْلِ فِيمَا يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ: أَنْ يَنْظُرَ الْإِنْسَانُ الْمُعْتَادُ مَا يَتَعَدَّى هُوَ بِهِ لَوْ وَقَعَ عَلَيْهِ؛ فَلَا يُؤْذِي بِهِ أَحَدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ - تَعَالَى -.

أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

وَفِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ؛ وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي. ثُمَّ تَنْكَشِفُ، ثُمَّ تَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ. فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ؛ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ. وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ؛ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ؛ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ».

الْخُطْبَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: شَذَى الْوُرُودِ فِيمَا يُسَنُّ فِعْلُهُ لِلْمَوْلُودِ

عِبَادَ اللهِ، لَقَدِ اعْتَنَى الشَّارِعُ الْحَكِيمُ بِالْمَوْلُودِ عِنَايَةً عَظِيمَةً فَائِقَةً؛ فَرَتَّبَ لَهُ أَحْكَامًا وَآدَابًا؛ لِيَكُونَ الْإِسْلَامُ وَالِالْتِزَامُ بِهِ أَوَّلَ مَا يُلَامِسُ جَسَدَهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ؛ تَفَاؤُلًا بِتَمَسُّكِهِ بِهِ فِي بَقِيَّةِ مَرَاحِلِ حَيَاتِهِ.

وَلَقَدْ تَسَاهَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الْآدَابِ وَالْأَحْكَامِ؛ فَلَمْ يَرْعَوْهَا مَعَ مَوَالِيدِهِمْ؛ مِمَّا كَانَ سَبَبًا لِفُشُوِّ كَثِيرٍ مِنَ الْبِدَعِ وَالْعَوَائِدِ الْمُنْكَرَةِ فِي هَذَا الْبَابِ.

فَحَرِيٌّ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يَتَعَلَّمَ هَذِهِ الْآدَابَ وَالْأَحْكَامَ، وَأَنْ يَرْعَاهَا مَعَ مَوَالِيدِهِ؛ طَلَبًا لِلثَّوَابِ مِنَ اللهِ – جَلَّ جَلَالُهُ –، وَإِحْيَاءً لِسُنَّةِ الْمُصْطَفَى – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

فَمِنْ تِلْكَ الْآدَابِ: اسْتِحْبَابُ بِشَارَةِ مَنْ رُزِقَ وَلَدًا وَتَهْنِئَتِهِ بِذَلِكَ.

قَالَ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا –: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ • إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ • قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ • قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ

تُبَشِّرُونَ • قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر: ٥١-٥٥].

وَقَالَ – تَعَالَى –: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

وَقَالَ: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وَلَمَّا كَانَتِ الْبِشَارَةُ تُسْعِدُ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ وَتُفْرِحُهُ؛ اسْتُحِبَّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُدْخِلَ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ السُّرُورَ، وَأَنْ يُعْلِمَهُ بِمَا يُفْرِحُهُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَنْ تُدْخِلَ عَلَى أَخِيكَ الْمُؤْمِنِ سُرُورًا»، أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَغَيْرُهُ، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

فَإِنْ فَاتَتْهُ الْبِشَارَةُ؛ اسْتُحِبَّ لَهُ التَّهْنِئَةُ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْبِشَارَةِ وَالتَّهْنِئَةِ: أَنَّ الْبِشَارَةَ إِعْلَامٌ لَهُ بِمَا يَسُرُّهُ، وَالتَّهْنِئَةُ دُعَاءٌ لَهُ بِالْخَيْرِ فِيهِ وَالْبَرَكَةِ فِيهِ بَعْدَ أَنْ يَعْلَمَهُ.

وَقَدْ كَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى – يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ أَنْ يَقُولُوا فِي تَهْنِئَةِ الْمَوْلُودِ: بُورِكَ لَكَ فِي الْمَوْهُوبِ، وَشَكَرْتَ

الْوَاهِبَ، وَبَلَغَ رُشْدَهُ، وَرُزِقْتَ بِرَّهُ. وَإِنْ قَالَ غَيْرَ هَذِهِ الْعِبَارَةِ فَحَسَنٌ.

وَمِنَ الْآدَابِ: تَحْنِيكُ الصَّبِيِّ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ يُؤْتَى بِالصِّبْيَانِ فَيُحَنِّكُهُمْ وَيَدْعُو لَهُمْ بِالْبَرَكَةِ. وَالتَّحْنِيكُ هُوَ أَنْ يُلَيِّنَ الْمُحَنِّكُ تَمْرَةً فِي يَدِهِ، ثُمَّ يَدْلُكُ بِهَا حَنَكَ الْمَوْلُودِ، وَيَقُومُ بِهَذَا الْعَمَلِ وَالِدُ الْمَوْلُودِ أَوْ وَالِدَتُهُ، أَوْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالصَّلَاحِ وَالِاسْتِقَامَةِ.

أَمَّا مَضْغُ التَّمْرَةِ مِنَ الْمُحَنِّكِ فِي فَمِهِ فَهَذَا خَاصٌّ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ لِأَنَّ بَرَكَتَهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – مُتَحَقِّقَةٌ، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَالِدُ الْمَوْلُودِ أَوْ وَالِدَتُهُ فَلَا بَأْسَ – إِنْ شَاءَ اللهُ –، وَهُوَ ظَاهِرُ فِعْلِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى –.

وَمِنَ الْآدَابِ: تَسْمِيَةُ الْمَوْلُودِ، إِنْ شَاءَ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «وُلِدَ لِيَ اللَّيْلَةَ غُلَامٌ فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ». وَإِنْ شَاءَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «كُلُّ غُلَامٍ رَهِينَةٌ بِعَقِيقَتِهِ، تُذْبَحُ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَيُسَمَّى فِيهِ، وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ».

وَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُرَاعِيَ الْأَسْمَاءَ الْمُسْتَحَبَّةَ فِي الشَّرْعِ، كَعَبْدِ اللهِ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ؛ لِقَوْلِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ: عَبْدُ اللهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»، وَكَأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ –؛ لِقَوْلِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: «تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ»، وَكَأَسْمَاءِ الصَّحَابَةِ وَالْمَعْرُوفِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالِاسْتِقَامَةِ وَالصَّلَاحِ؛ كَمَا هُوَ دَأْبُ السَّلَفِ الصَّالِحِ – رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُمْ –.

وَعَلَيْهِ أَنْ يَجْتَنِبَ الْأَسْمَاءَ الْمَكْرُوهَةَ، كَيَسَارٍ، وَرَبَاحٍ، وَأَفْلَحَ، وَنَجِيحٍ، وَمَا جَرَى مَجْرَى هَذِهِ الْأَسْمَاءِ.

وَعَلَيْهِ أَنْ يَجْتَنِبَ الْأَسْمَاءَ الْمُحَرَّمَةَ اجْتِنَابًا كَامِلًا، كَعَبْدِ النَّبِيِّ، وَعَبْدِ الْحُسَيْنِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ.

أَمَّا (السِّقْطُ) فَإِنَّهُ يُسَمَّى؛ لِأَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُدْعَى بِاسْمِهِ. ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ قُدَامَةَ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى –، وَلَا يَصِحُّ فِي الْبَابِ حَدِيثٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

وَمِنَ الْآدَابِ – أَيْضًا –: حَلْقُ شَعْرِ الصَّبِيِّ، وَالتَّصَدُّقُ بِوَزْنِهِ فِضَّةً؛ لِأَمْرِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِذَلِكَ، وَقَدْ رَجَّحَ الْحَنَابِلَةُ

اخْتِصَاصَ الْحَلْقِ بِالذَّكَرِ دُونَ الْأُنْثَى، وَيَكُونُ الْحَلْقُ يَوْمَ سَابِعٍ مِنَ الْوِلَادَةِ.

وَمِنَ الْآدَابِ – أَيْضًا –: الْخِتَانُ، وَهُوَ وَاجِبٌ فِي حَقِّ الذَّكَرِ، مَكْرُمَةٌ وَسُنَّةٌ فِي حَقِّ الْأُنْثَى. وَيَجِبُ بِبُلُوغِ الصَّبِيِّ؛ لِأَنَّ بِبُلُوغِهِ تَجِبُ عَلَيْهِ الْأَحْكَامُ، وَ«مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ؛ فَهُوَ وَاجِبٌ».

وَمِنَ الْآدَابِ – أَيْضًا –: الْعَقِيقَةُ؛ وَهِيَ الشَّاةُ الَّتِي تُذْبَحُ عَنِ الْمَوْلُودِ، وَتَسْمِيَةُ بَعْضِ الْعَامَّةِ لَهَا (تَمِيمَةً) لَا أَصْلَ لَهُ فِي الشَّرْعِ، وَهِيَ – أَيْ: الْعَقِيقَةُ – سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ فِي أَصَحِّ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَلَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ؛ لِمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ وُلِدَ لَهُ وَلَدٌ فَأَحَبَّ أَنْ يَنْسِكَ عَنْهُ؛ فَشَاتَانِ عَنِ الْغُلَامِ، وَشَاةٌ عَنِ الْجَارِيَةِ».

وَذَبْحُهَا أَفْضَلُ مِنَ التَّصَدُّقِ بِثَمَنِهَا، وَلَوْ زَادَ. وَالسُّنَّةُ شَاتَانِ عَنِ الْغُلَامِ، وَشَاةٌ عَنِ الْجَارِيَةِ؛ كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

وَالْأَفْضَلُ أَنْ يُرَاعِيَ فِي الْعَقِيقَةِ مَا يُرَاعَى فِي الْأُضْحِيَّةِ، مِنْ حَيْثُ السِّنُّ، وَمِنْ حَيْثُ الصِّفَاتُ الْجِسْمِيَّةُ فِي الْأُضْحِيَّةِ.

وَوَقْتُ الْعَقِيقَةِ هُوَ الْيَوْمُ السَّابِعُ مِنَ الْوِلَادَةِ، فَإِنْ فَاتَ؛ فَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعَ عَشَرَ، فَإِنْ فَاتَ؛ فَفِي الْيَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ، فَإِنْ فَاتَ؛ ذَبَحَ فِي أَيِّ يَوْمٍ شَاءَ؛ عَلَى الصَّحِيحِ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ – رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى –.

وَلِلْمُسْلِمِ أَنْ يَصْرِفَ الْعَقِيقَةَ فِي أَيِّ شَيْءٍ أَرَادَ، وَفِي أَيِّ مَصْرِفٍ أَرَادَ، لَكِنَّ الْأَفْضَلَ – كَمَا نَصَّ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ – أَنْ يَطْبُخَهَا، وَأَنْ يَدْعُوَ إِلَيْهَا الْأَقَارِبَ وَالْمَسَاكِينَ وَالْجِيرَانَ.

وَمَنْ كَبُرَ وَلَمْ يَعُقَّ عَنْهُ وَالِدُهُ فَلَا يَعُقُّ هُوَ عَنْ نَفْسِهِ فِي قَوْلِ أَهْلِ الْعِلْمِ – رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى –، فَإِنْ عَقَّ عَنْهُ وَالِدُهُ وَهُوَ كَبِيرٌ فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ – إِنْ شَاءَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى –.

أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ، هُنَاكَ عَوَائِدُ وَبِدَعٌ فَشَتْ فِي بَعْضِ النَّاسِ تَتَعَلَّقُ بِالْمَوَالِيدِ، يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُحَارِبَهَا، وَإِذَا كَانَ قَدْ وَقَعَ فِيهَا؛ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهَا؛ لِأَنَّهَا إِثْمٌ وَحُوبٌ كَبِيرٌ.

فَمِنْ ذَلِكَ: مَا يُسَمَّى بِـ(عِيدِ الْمِيلَادِ)، وَهِيَ بِدْعَةٌ أَجْنَبِيَّةٌ، وَفَدَتْ إِلَيْنَا عَنِ الْغَرْبِيِّينَ وَأَذْنَابِهِمْ، وَهِيَ بِدْعَةٌ نَتِينَةٌ؛ فَهِيَ افْتِرَاءٌ عَلَى اللهِ، وَتَقَوُّلٌ عَلَى شَرْعِهِ، وَإِحْدَاثٌ فِي دِينِ اللهِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ

– سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –؛ فَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُنْكِرَ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ، وَأَنْ يُحَذِّرَ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا.

وَمِنْ ذَلِكَ: تَسْمِيَةُ بَعْضِ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَاءِ الْغَرْبِيِّينَ الْكَافِرِينَ، وَأَسْمَاءِ الْمُغَنِّينَ وَالْمُغَنِّيَاتِ الْمَشْهُورِينَ، وَهَذِهِ – وَأَيْمُ اللهِ – ظَاهِرَةٌ سَيِّئَةٌ خَطِرَةٌ جِدًّا، تَنِمُّ عَنْ ضَعْفِ الْعَقِيدَةِ، وَعَنْ ضَعْفِ الْإِيمَانِ بِاللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –، وَعَنْ ضَعْفِ شَخْصِيَّةِ هَذَا الْمُسَمِّي، وَعَدَمِ اعْتِزَازِهِ بِدِينِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُ الصَّالِحُ.

وَمِنْ ذَلِكَ – أَيْضًا –: تَبَرُّمٌ وَتَشَاؤُمٌ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ عِنْدَمَا يُولَدُ لَهُمْ بِنْتٌ، وَهَذَا هُوَ حَالُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ – عَافَانَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ ذَلِكَ –، وَأَيْمُ اللهِ لَا يَدْرِي الْمُسْلِمُ أَيُّهُمَا خَيْرٌ: الْوَلَدُ أَوِ الْبِنْتُ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَقْبَلَ مَا جَاءَهُ مِنَ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – بِكُلِّ رِضًى وَتَسْلِيمٍ؛ فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤَدِّيَ شُكْرَ نِعْمَةِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – عَلَيْهِ.

الْخُطْبَةُ الْعِشْرُونَ: شُرُوطُ الصَّلَاةِ

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ أَمَرَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – عِبَادَهُ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَأَمَرَهُمْ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا؛ فَمَنْ حَفِظَهَا حَفِظَ دِينَهُ،

وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ.

وَإِنَّ حِفْظَهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِحِفْظِ شُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا، وَالْإِتْيَانِ بِذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْثُورِ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –. وَعَلَى ذَلِكَ؛ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَعَلَّمَ شُرُوطَ الصَّلَاةِ وَأَرْكَانَهَا وَوَاجِبَاتِهَا؛ لِيَكُونَ تَعَلُّمُهُ ذَلِكَ عَوْنًا لَهُ عَلَى حِفْظِ صَلَاتِهِ مِنَ الْخَطَأِ وَالنُّقْصَانِ وَالْبُطْلَانِ.

أَمَّا شُرُوطُ الصَّلَاةِ فَهِيَ تِسْعَةٌ.

أَوَّلُهَا: الْإِسْلَامُ، وَضِدُّهُ الْكُفْرُ، وَالْكَافِرُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ عَمَلٌ؛ قَالَ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا –: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧]، وَقَالَ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وَالثَّانِي: الْعَقْلُ، وَضِدُّهُ الْجُنُونُ، وَالْمَجْنُونُ مَرْفُوعٌ عَنْهُ الْقَلَمُ حَتَّى يُفِيقَ؛ لِحَدِيثِ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: النَّائِمُ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَالْمَجْنُونُ حَتَّى يُفِيقَ، وَالصَّغِيرُ حَتَّى يَبْلُغَ».

وَالثَّالِثُ: التَّمْيِيزُ، وَضِدُّهُ الصِّغَرُ، وَحَدُّ الصِّغَرِ سَبْعُ سِنِينَ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُؤْمَرُ بِالصَّلَاةِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ».

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: رَفْعُ الْحَدَثِ، بِالْوُضُوءِ إِنْ كَانَ الْحَدَثُ أَصْغَرَ، وَبِالِاغْتِسَالِ إِنْ كَانَ الْحَدَثُ أَكْبَرَ؛ قَالَ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا –: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، وَفِي الْحَدِيثِ: «لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ».

الشَّرْطُ الْخَامِسُ: إِزَالَةُ النَّجَاسَةِ مِنَ الثَّوْبِ وَالْبُقْعَةِ وَالْبَدَنِ؛ يَقُولُ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]، وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ تَطْهِيرٍ مَعْنَوِيًّا كَانَ أَوْ حِسِّيًّا.

الشَّرْطُ السَّادِسُ: سَتْرُ الْعَوْرَةِ، وَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى فَسَادِ صَلَاةِ مَنْ صَلَّى عُرْيَانًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى سَتْرِ عَوْرَتِهِ، وَحَدُّ عَوْرَةِ الرَّجُلِ مِنَ السُّرَّةِ إِلَى الرُّكْبَةِ، وَلَيْسَتِ السُّرَّةُ وَالرُّكْبَةُ دَاخِلَتَيْنِ فِي حُدُودِ الْعَوْرَةِ. أَمَّا الْمَرْأَةُ الْحُرَّةُ الْبَالِغَةُ فَكُلُّهَا عَوْرَةٌ سِوَى وَجْهِهَا فِي الصَّلَاةِ.

يَقُولُ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا –: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] أَيْ: عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ.

وَثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ: «لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلَاةَ حَائِضٍ إِلَّا بِخِمَارٍ»، وَالْحَائِضُ هِيَ الْمَرْأَةُ الْبَالِغَةُ.

وَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – لِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «تُصَلِّي إِحْدَانَا فِي دِرْعٍ وَخِمَارٍ وَلَيْسَ عَلَيْهَا إِزَارٌ. فَقَالَ: لَا بَأْسَ بِذَلِكَ إِذَا كَانَ سَابِغًا يُغَطِّي قَدَمَيْهَا».

فَيَجِبُ سَتْرُ الْعَوْرَةِ بِمَا يَسْتُرُ لَوْنَ الْبَشَرَةِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتُرْ لَوْنَ الْبَشَرَةِ وَوَصَفَهَا؛ فَإِنَّهُ لَا يُعْتَدُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، كَالثِّيَابِ الْخَفِيفَةِ وَالدُّرُوعِ الْخَفِيفَةِ.

وَيَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَضَعَ شَيْئًا عَلَى عَاتِقَيْهِ فِي الصَّلَاةِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُكُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَلَيْسَ عَلَى عَاتِقِهِ مِنْهُ شَيْءٌ».

الشَّرْطُ السَّابِعُ مِنْ شُرُوطِ الصَّلَاةِ: اسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ؛ قَالَ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا –: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤، ١٥٠].

وَالنَّاسُ فِي اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ عَلَى قِسْمَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا: مَنْ فَرْضُهُ إِصَابَةُ عَيْنِ الْكَعْبَةِ، وَهَذَا فِي حَقِّ مَنْ كَانَ مُشَاهِدًا لِلْكَعْبَةِ، أَوْ كَانَ فِي مَكَّةَ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ مَكَّةَ. وَالْآخَرُ: مَنْ فَرْضُهُ إِصَابَةُ جِهَةِ الْكَعْبَةِ، وَهُوَ مَنْ كَانَ بَعِيدًا عَنْهَا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي حَقِّ هَذَا: «مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ».

وَالْبَعِيدُ عَنِ الْكَعْبَةِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي بَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ؛ فَفَرْضُهُ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى مَحَارِيبِهِمْ، وَأَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِ الْبَلَدِ فِي مَعْرِفَةِ الْقِبْلَةِ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي إِصَابَةِ الْقِبْلَةِ وَالْحَالُ هَذِهِ.

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي غَيْرِ بَلَدٍ – كَبَرِّيَّةٍ، أَوْ بَحْرٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ –، فَإِنْ كَانَ عَالِمًا بِأَدِلَّةِ إِصَابَةِ الْقِبْلَةِ مِنَ النُّجُومِ وَالرِّيَاحِ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَجْتَهِدَ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّهُ قَدْ أَصَابَ جِهَةَ الْكَعْبَةِ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِذَلِكَ؛ فَفَرْضُهُ التَّقْلِيدُ عِنْدَئِذٍ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُجْتَهِدًا وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يُقَلِّدُهُ؛ تَحَرَّى فَصَلَّى، فَإِنْ تَبَيَّنَ بَعْدَ الصَّلَاةِ أَنَّهُ قَدْ صَلَّى إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ وَالْحَالُ مَا ذُكِرَ فَصَلَاتُهُ صَحِيحَةٌ وَلَا إِعَادَةَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – [أَفْتَى] أَصْحَابَهُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ – بِذَلِكَ.

وَيَسْقُطُ اسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ فِي حَالَاتٍ ثَلَاثٍ:

الْأُولَى: فِي تَعَذُّرِ الِاسْتِقْبَالِ إِلَى الْقِبْلَةِ، كَأَنْ يَكُونَ أَسِيرًا قَدْ رُبِطَ إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ.

وَالثَّانِيَةُ: فِي شِدَّةِ الْخَوْفِ، كَحَالِ الْتِحَامِ الصُّفُوفِ؛ فَقَدْ أَسْقَطَ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – وَالْحَالُ هَذِهِ اسْتِقْبَالَ الْقِبْلَةِ.

وَالْحَالَةُ الثَّالِثَةُ: أَنْ يُصَلِّيَ النَّافِلَةَ فِي السَّفَرِ عَلَى دَابَّتِهِ أَوْ سَيَّارَتِ.

فَفِي هَذِهِ الْحَالَاتِ يَسْقُطُ وُجُوبُ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ.

عِبَادَ اللهِ، الشَّرْطُ الثَّامِنُ مِنْ شُرُوطِ الصَّلَاةِ: دُخُولُ وَقْتِهَا.

فَأَوَّلُ وَقْتِ الظُّهْرِ إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ، وَآخِرُ وَقْتِهَا إِذَا صَارَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ؛ كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، أَنَّ جِبْرِيلَ أَمَّ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عِنْدَ الْبَيْتِ، فَصَلَّى بِهِ الظُّهْرَ حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ صَلَّى بِهِ الظُّهْرَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي حِينَ صَارَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ، ثُمَّ قَالَ: الْوَقْتُ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ.

وَوَقْتُ الْعَصْرِ يَبْدَأُ مِنْ صَيْرُورَةِ ظِلِّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ إِلَى صَيْرُورَةِ ظِلِّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَيْهِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمُتَقَدِّمِ.

أَمَّا وَقْتُ الْمَغْرِبِ فَهُوَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ؛ فَإِذَا غَابَتْ فَقَدْ بَدَأَ وَقْتُ الْمَغْرِبِ، وَيَنْتَهِي بِغُرُوبِ الشَّفَقِ الْأَحْمَرِ.

ثُمَّ يَبْدَأُ وَقْتُ الْعِشَاءِ مِنْ بَعْدِ غُرُوبِ الشَّفَقِ الْأَحْمَرِ، وَيَنْتَهِي إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ.

أَمَّا وَقْتُ الْفَجْرِ فَيَبْدَأُ بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ الصَّادِقِ – وَهُوَ الثَّانِي –، وَيَنْتَهِي بِطُلُوعِ الشَّمْسِ.

وَالْأَفْضَلُ فِي الظُّهْرِ أَنْ يَتَعَجَّلَ بِهَا الْمُسْلِمُ، إِلَّا فِي شِدَّةِ الْحَرِّ؛ فَالسُّنَّةُ الْإِبْرَادُ؛ كَمَا أَمَرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

وَكَذَا الْحَالُ فِي الْعَصْرِ: الْأَفْضَلُ التَّبْكِيرُ بِهَا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ يُصَلِّي الْعَصْرَ، ثُمَّ يَذْهَبُ الذَّاهِبُ إِلَى رَحْلِهِ فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ.

وَكَذَا الْمَغْرِبُ: يُسْتَحَبُّ تَبْكِيرُهَا؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ يُبَكِّرُ بِهَا، وَأَمَّ جِبْرِيلُ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَرَّتَيْنِ الْمَغْرِبَ كُلُّهَا يُصَلِّي فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا.

أَمَّا الْعِشَاءُ فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَسْتَحِبُّ تَأْخِيرَهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ ضَرَرًا عَلَى الْمُصَلِّينَ.

أَمَّا الْفَجْرُ فَالسُّنَّةُ التَّبْكِيرُ بِهَا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ يُصَلِّيهَا بِغَلَسٍ؛ وَهُوَ شِدَّةُ الظَّلَامِ.

وَعَلَى الْإِمَامِ أَنْ يُرَاعِيَ أَحْوَالَ الْمَأْمُومِينَ، وَأَنْ يَنْتَبِهَ لَهُمْ؛ فَلَا يُضِرُّ بِهِمْ فِي أَيِّ وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ.

أَمَّا الشَّرْطُ التَّاسِعُ مِنْ شُرُوطِ الصَّلَاةِ؛ فَهُوَ النِّيَّةُ، وَمَحَلُّهَا الْقَلْبُ، وَالتَّلَفُّظُ بِهَا بِدْعَةٌ؛ يَقُولُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ».

فَاعْرِفُوا هَذِهِ الشُّرُوطَ – بَارَكَ اللهُ فِيكُمْ –، وَاحْفَظُوهَا، وَاحْذَرُوا مِنَ الْإِخْلَالِ بِهَا؛ فَإِنَّ الْإِخْلَالَ بِشَيْءٍ مِنْهَا مُفْسِدٌ لِلصَّلَاةِ.

الْخُطْبَةُ الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: غَنَائِمُ الشِّتَاءِ

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ دَخَلَ فَصْلُ الشِّتَاءِ الَّذِي تَقَرُّ فِيهِ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ أَحْيَاهَا اللهُ بِالْمَاءِ، فَـ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن

كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، وَالَّذِي تَتَطَلَّعُ الْأَفْئِدَةُ إِلَيْهِ؛ لِتَتَخَلَّصَ مِنْ حَرَارَةِ الصَّيْفِ وَشِدَّةِ لَهِيبِ شَمْسِهِ.

إِنَّ هَذَا الْفَصْلَ – يَا عِبَادَ اللهِ – فَصْلٌ مُبَارَكٌ يَسْتَقْبِلُهُ الْمُسْلِمُ بِحَبَاوَةٍ وَتَكْرِيمٍ؛ وَذَلِكَ لِمَا أَوْدَعَ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – فِيهِ مِنْ تَيْسِيرِ الْقِيَامِ بِبَعْضِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تَشُقُّ فِي غَيْرِهِ، وَمِنْ مُضَاعَفَةِ أُجُورِ بَعْضِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي يَشُقُّ الْقِيَامُ بِهَا فِيهِ.

أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «الشِّتَاءُ رَبِيعُ الْمُؤْمِنِ»، وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُ بِلَفْظِ: «الشِّتَاءُ رَبِيعُ الْمُؤْمِنِ؛ طَالَ لَيْلُهُ فَقَامَهُ، وَقَصُرَ نَهَارُهُ فَصَامَهُ»، حَسَّنَهُ الْهَيْثَمِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَإِنَّمَا كَانَ الشِّتَاءُ رَبِيعَ الْمُؤْمِنِ؛ لِأَنَّهُ يَرْتَعُ فِيهِ فِي مَيَادِينِ الطَّاعَاتِ، وَيَفْرَحُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَيُنَزِّهُ قَلْبَهُ فِي رِيَاضِ الْأَعْمَالِ الْمُيَسَّرَةِ فِيهِ؛ فَالْمُسْلِمُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصُومَ نَهَارَ الشِّتَاءِ دُونَ مَشَقَّةٍ وَلَا كَلَفَةٍ مِنْ جُوعٍ وَعَطَشٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ نَهَارَهُ قَصِيرٌ بَارِدٌ.

وَلِذَا؛ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – لِأَصْحَابِهِ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى الْغَنِيمَةِ الْبَارِدَةِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: الصِّيَامُ فِي الشِّتَاءِ»، وَقَدْ رُوِيَ

مَرْفُوعًا وَلَا يَثْبُتُ.

وَمَعْنَى كَوْنِهِ غَنِيمَةً بَارِدَةً أَنَّهَا غَنِيمَةٌ حَصَلَتْ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ، وَمِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَعَنَاءٍ.

وَكَذَلِكَ يَقْدِرُ الْمُسْلِمُ فِي الشِّتَاءِ عَلَى قِيَامِ لَيْلِهِ، مَعَ أَخْذِ نَفْسِهِ حَظًّا كَامِلًا مِنَ النَّوْمِ، بِخِلَافِ لَيْلِ الصَّيْفِ؛ فَإِنَّهُ – لِقِصَرِهِ، وَشِدَّةِ حَرِّهِ – تَغْلُبُ كَثْرَةُ النَّوْمِ فِيهِ، وَيَشُقُّ قِيَامُهُ؛ فَيَحْتَاجُ الْقِيَامُ فِيهِ إِلَى مُجَاهَدَةٍ كَبِيرَةٍ.

جَاءَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الشِّتَاءُ قَالَ: «جَاءَكُمُ الشِّتَاءُ، فَصْلُ بَرَكَةٍ؛ لَيْلُهُ طَوِيلٌ يُقَامُ، وَنَهَارُهُ قَصِيرٌ يُصَامُ».

وَيَقُولُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ –: «نِعْمَ زَمَانُ الْمُؤْمِنِ الشِّتَاءُ؛ لَيْلُهُ طَوِيلٌ يَقُومُهُ، وَنَهَارُهُ قَصِيرٌ يَصُومُهُ».

وَجَاءَ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى – أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الشِّتَاءُ قَالَ: «يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ، قَدْ طَالَ لَيْلُكُمْ لِلْقِرَاءَةِ؛ فَاقْرَؤُوا، وَقَصُرَ نَهَارُكُمْ لِلصِّيَامِ؛ فَصُومُوا».

فَحَرِيٌّ بِالْمُسْلِمِ – عِبَادَ اللهِ – أَنْ يَهْتَبِلَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ الْمُبَارَكَةَ، وَأَنْ يَجْعَلَ مِنْ سَاعَاتِ لَيْلِ الشِّتَاءِ سَاعَةً يَخْلُو فِيهَا بِرَبِّهِ – جَلَّ وَعَلَا –؛ عَلَّ عَثْرَةً تُقَالُ، أَوْ ذَنْبًا يُغْفَرُ، أَوْ كَرْبًا يُفْرَجُ، أَوْ دَرَجَةً تُرْفَعُ؛ فَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِ، وَيَجْعَلُ الْمُسْلِمَ مُعَرَّضًا لِحُصُولِ الثَّوَابِ الْمُخْفَى فِي قَوْلِ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا –: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ شُرِعَ لَنَا أَنْ نَسْتَدْفِعَ أَذَى الْبَرْدِ بِمَا يَدْفَعُهُ مِنْ لِبَاسٍ وَنَحْوِهِ، وَقَدِ امْتَنَّ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – عَلَى عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنْ أَصْوَافِ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ وَأَشْعَارِهَا مَا يَسْتَدْفِئُونَ بِهِ؛ قَالَ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا –: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، وَقَالَ: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَسْتَدْفِعَ أَذَى الْحَرِّ وَالْبَرْدِ؛ فَإِنَّ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ شِدَّتُهَا مِنْ أَعْدَاءِ بَنِي آدَمَ، وَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَذَكَّرَ فِي شِدَّةِ الْبَرْدِ جَهَنَّمَ؛ فَيَسْتَعِيذَ مِنْهَا؛ لِأَنَّ أَشَدَّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْبَرْدِ هُوَ مِنْ جَهَنَّمَ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ لِجَهَنَّمَ نَفَسَيْنِ:

نَفَسًا فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسًا فِي الصَّيْفِ؛ فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْبَرْدِ مِنْ زَمْهَرِيرِهَا، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ مِنْ سَمُومِهَا».

عِبَادَ اللهِ، رَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ الْخَبَائِرِيِّ – رَحِمَهُ اللهُ – أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – إِذَا حَضَرَ الشِّتَاءُ تَعَاهَدَهُمْ وَكَتَبَ لَهُمْ بِالْوَصِيَّةِ: إِنَّ الشِّتَاءَ قَدْ حَضَرَ، وَهُوَ عَدُوٌّ لَكُمْ؛ فَتَأَهَّبُوا لَهُ أُهْبَتَهُ مِنَ الصُّوفِ وَالْخِفَافِ وَالْجَوَارِبِ، وَاتَّخِذُوا الصُّوفَ شِعَارًا وَدِثَارًا؛ فَإِنَّ الْبَرْدَ عَدُوٌّ سَرِيعٌ دُخُولُهُ، بَعِيدٌ خُرُوجُهُ».

فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَأْخُذَ بِوَصِيَّةِ الْفَارُوقِ – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ –، وَأَنْ يَخَافَ مِنَ الْبَرْدِ، وَأَنْ يَسْتَعِدَّ لَهُ اسْتِعْدَادًا كَامِلًا، لَاسِيَّمَا فِي أَوَّلِ وَقْتِهِ؛ فَإِنَّهُ أَضَرُّ مَا يَكُونُ عَلَى الْمُسْلِمِ كَمِثْلِ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ.

الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: فَضْلُ الْبَنَاتِ

عِبَادَ اللهِ، يَقُولُ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ • يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – حَالَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ عِنْدَمَا يُولَدُ لِأَحَدِهِمْ بِنْتٌ، وَهَذَا الْبَيَانُ لِحَالِهِمْ إِنَّمَا هُوَ عَلَى سَبِيلِ الذَّمِّ لَهُمْ، وَالتَّقْبِيحِ لِفِعْلِهِمْ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ، وَالتَّنْفِيرِ عَنْهُ.

فَإِنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا وُلِدَتْ لَهُ بِنْتٌ اسْوَدَّ وَجْهُهُ، وَاكْتَهَرَ، وَامْتَلَأَ قَلْبُهُ غَيْظًا وَحَنَقًا عَلَى تِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي جَلَبَتْ لَهُ هَذِهِ الْمُصِيبَةَ عَلَى حَدِّ زَعْمِهِ الْفَاسِدِ، وَتَخَفَّى عَنِ الْأَعْيُنِ، وَتَوَارَى عَنِ النَّاسِ، وَاحْتَارَ حَيْرَةً كَبِيرَةً فِي هَذِهِ الْبِنْتِ: أَيُبْقِيهَا حَيَّةً مَعَ مَا سَيَلْحَقُهُ مِنْ عَارِهَا كَمَا يَتَصَوَّرُ، أَمْ يَئِدُهَا لِيَسْتَرِيحَ مِنْ شَرِّهَا وَعَارِهَا وَنَفَقَاتِهَا!!

يَقُولُ قَتَادَةُ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى – عَلَى هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: «هَذَا صَنِيعُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، أَخْبَرَهُمُ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِخُبْثِ صَنِيعَتِهِمْ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يَرْضَى بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُ، وَقَضَاءُ اللهِ خَيْرٌ مِنْ قَضَاءِ الْمَرْءِ لِنَفْسِهِ، وَلَعَمْرِي مَا يَدْرِي أَنَّهُ خَيْرٌ، لَرُبَّ جَارِيَةٍ خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ غُلَامٍ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَكُمُ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – بِخَبَرِهِمْ لِتَحْذَرُوهُ وَلِتَنْتَهُوا عَنْهُ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، لَقَدْ بَدَأَتْ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ فِي الِانْتِشَارِ بَيْنَ أَوْسَاطٍ كَثِيرٍ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، وَهِيَ ظَاهِرَةُ شَرٍّ وَبَلَاءٍ،

فِيهَا مُشَاقَّةُ اللهِ وَرَسُولِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَفِيهَا تَعَدٍّ لِحُدُودِ اللهِ، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

وَهِيَ اعْتِرَاضٌ عَلَى قَضَاءِ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا – وَقَدَرِهِ؛ فَإِنَّ أَمْرَ الذُّرِّيَّةِ بِيَدِ اللهِ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ؛ كَمَا قَالَ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا –: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ • أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

وَقَدْ عَلِمَ الْجَمِيعُ خَبَرَ الِاعْتِرَاضِ عَلَى قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ «مَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»، يَعْنِي: مَنْ سَخِطَ أَمْرَ اللهِ، وَاعْتَرَضَ عَلَى قَضَائِهِ – تَعَالَى –؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَدْعَاةٌ إِلَى سَخَطِ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا – عَلَيْهِ، وَإِذَا سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ فَقَدْ هَلَكَ وَخَابَ وَخَسِرَ.

وَفِي هَذَا الِاعْتِرَاضِ عَلَى قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ اتِّهَامٌ لِلَّهِ – جَلَّ وَعَلَا – بِعَدَمِ الْحِكْمَةِ فِي أَفْعَالِهِ، وَهُوَ – جَلَّ وَعَلَا – لَا يَفْعَلُ شَيْئًا عَبَثًا؛ بَلْ يَفْعَلُهُ لِحِكَمٍ عَظِيمَةٍ، قَدْ يَظْهَرُ بَعْضُهَا لِلنَّاسِ، وَقَدْ يَخْفَى كَثِيرٌ مِنْهَا عَلَى النَّاسِ، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

فَالْمُتَحَلِّي بِهَذِهِ الْخَصْلَةِ الذَّمِيمَةِ – وَهِيَ التَّسَخُّطُ مِنَ الْبَنَاتِ – قَدْ شَابَهَ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَصَنِيعِهِمْ؛ فَبِئْسَ مَا فَعَلَ، وَبِئْسَ مَا اقْتَرَفَتْ يَدَاهُ.

وَإِذَا كَانَ التَّسَخُّطُ وَهَذَا التَّذَمُّرُ مُصَاحِبًا لِلْخَوْفِ مِنَ الْإِنْفَاقِ عَلَى هَذِهِ الْبِنْتِ؛ فَإِنَّ الْجُرْمَ يَزْدَادُ شَرًّا، وَيَسْتَفْحِلُ جِدًّا؛ لِأَنَّ اللهَ – جَلَّ وَعَلَا – تَكَفَّلَ بِرِزْقِ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا؛ ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وَنَهَى – جَلَّ وَعَلَا – عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ؛ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وَقَدْ كَانَ رَجُلٌ جَالِسًا عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، وَكَانَ لَهُ بَنَاتٌ، فَتَمَنَّى مَوْتَهُنَّ؛ فَغَضِبَ ابْنُ عُمَرَ جِدًّا وَقَالَ: «أَنْتَ تَرْزُقُهُنَّ؟!».

عِبَادَ اللهِ، ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١]، قَدْ تَكُونُ الْبَنَاتُ خَيْرًا لِآبَائِهِنَّ وَأُمَّهَاتِهِنَّ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الذُّكُورِ، كَمَا قَالَ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – فِي شَأْنِ النِّسَاءِ: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «هَذَا كَمَا أَنَّهُ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّهُ يَكُونُ فِي الْبَنَاتِ؛ فَقَدْ يَكْرَهُهُنَّ الْمَرْءُ وَاللهُ – جَلَّ وَعَلَا – جَعَلَ فِيهِنَّ خَيْرًا كَثِيرًا».

أَيُّهَا الْأَخُ الْمُسْلِمُ، إِذَا تَسَلَّطَ الشَّيْطَانُ عَلَيْكَ، وَأَلْقَى فِي قَلْبِكَ نَفَثَاتِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَحْسَسْتَ مِنْ نَفْسِكَ الْكَرَاهَةَ لِلْبِنْتِ الْمَوْلُودَةِ؛ فَتَذَكَّرْ أَنَّ الذُّرِّيَّةَ ذُكُورًا وَإِنَاثًا نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – يَهَبُهَا لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَتَذَكَّرْ إِخْوَانَكَ الَّذِينَ حَرَمَهُمُ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – مِنَ الْإِنْجَابِ وَالذُّرِّيَّةِ؛ لِتَعْلَمَ فَضْلَ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – عَلَيْكَ؛ فَإِنَّ الذُّرِّيَّةَ هُمْ جَمَالُ الدُّنْيَا بَنِينًا أَوْ بَنَاتًا؛ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –، وَتَذَكَّرْ دَائِمًا أَنَّ أَنْبِيَاءَ اللهِ – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ – كَانُوا آبَاءَ بَنَاتٍ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى –: «الْأَنْبِيَاءُ آبَاءُ بَنَاتٍ»، وَقَدْ وَرَدَ فِي فَضْلِ الْبَنَاتِ مَا عَلِمْتُمْ.

فَاتَّقُوا اللهَ – جَلَّ وَعَلَا – عِبَادَ اللهِ –، وَاسْأَلُوا اللهَ – جَلَّ وَعَلَا – صَلَاحَ النِّيَّةِ وَالذُّرِّيَّةِ، وَاحْمَدُوهُ عَلَى مَا وَهَبَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ إِنَاثًا كَانَتْ أَمْ ذُكُورًا؛ فَقَدْ كَانَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – إِذَا بُشِّرَتْ بِوِلَادَةٍ سَأَلَتْ: «أَسَلِيمٌ هُوَ؟» فَإِنْ قِيلَ: سَلِيمٌ. قَالَتْ: «أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟»، فَبَدَأَتْ بِالسُّؤَالِ عَنْ سَلَامَةِ الْخِلْقَةِ؛ لِأَنَّ الْخِلْقَةَ فِي سَلَامَتِهَا نَفْعٌ عَظِيمٌ، وَهِيَ مِنَّةٌ كُبْرَى مِنَ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا –؛ فَلَوْ خُيِّرَ الْمَرْءُ بَيْنَ ذَكَرٍ مُشَوَّهٍ وَبِنْتٍ سَلِيمَةٍ لَاخْتَارَ بِنْتًا سَلِيمَةً.

عِبَادَ اللهِ، يَقُولُ بَعْضُ السَّلَفِ – رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى –: «الْبَنُونَ نِعَمٌ مِنَ اللهِ، وَالْبَنَاتُ حَسَنَاتٌ، وَاللهُ يُحَاسِبُ عَلَى النِّعَمِ، وَيُجَازِي عَلَى الْحَسَنَاتِ».

وَهَذَا حَقٌّ؛ فَإِنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِي النُّصُوصِ يَرَى فَضْلَ الْبَنَاتِ كَبِيرًا عَظِيمًا، وَأَجْرَ مَنْ عَالَهُنَّ وَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ أَجْرًا كَبِيرًا.

فَفِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) عَنْ أَنَسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا؛ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ – وَضَمَّ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى –».

وَثَبَتَ فِي (سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «مَنْ وُلِدَتْ لَهُ ابْنَةٌ فَلَمْ يَئِدْهَا، وَلَمْ يُهِنْهَا، وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا؛ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ».

وَثَبَتَ فِي (الْمُسْنَدِ) أَيْضًا أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ يُؤْوِيهِنَّ وَيَكْفُلُهُنَّ وَيَرْحَمُهُنَّ؛ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ. قِيلَ: فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ؟ قَالَ: وَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ. قَالَ: فَرَأَى بَعْضُ الْقَوْمِ أَنْ لَوْ قَالَ: وَاحِدَةً؟ لَقَالَ: وَاحِدَةً».

فَانْظُرُوا إِلَى فَضْلِ الْبَنَاتِ وَمَا جَاءَ فِيهِنَّ مِنَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ وَالثَّوَابِ الْجَزِيلِ؛ فَاحْمَدُوا اللهَ – جَلَّ وَعَلَا – عَلَيْهِنَّ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً.

الْخُطْبَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ:

فَضْلُ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ –

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ مَحَبَّةَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – دِينٌ يُدَانُ اللهُ بِهِ، وَقُرْبَةٌ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –؛ فَهُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَضْلُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ مَأْخُوذٌ وَمُسْتَمَدٌّ، وَهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ بِشَهَادَةِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَكَمَا أَنَّهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – أَفْضَلُ وَلَدِ آدَمَ وَسَيِّدُهُمْ، فَكَذَلِكَ أَصْحَابُهُ – رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُمْ – أَفْضَلُ أَصْحَابٍ وُجِدُوا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ.

يَقُولُ ابْنُ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا –: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَلَمُقَامُ أَحَدِهِمْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ

عَمَلِ أَحَدِكُمْ عُمُرَهُ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُمْ أَرْبَعِينَ عَامًا».

قَدْ رَضِيَ اللهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ؛ كَمَا قَالَ – جَلَّ وَعَلَا –: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وَكَمَا قَالَ – تَعَالَى –: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وَزَكَّاهُمُ اللهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – أَبْلَغَ تَزْكِيَةٍ، ثُمَّ أَمَرَنَا بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ، وَنَهَانَا عَنْ بُغْضِهِمْ وَشَنَآنِهِمْ؛ فَقَالَ اللهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ • وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ • وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا

اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ٨-٩].

فَالْمُسْتَحِقُّ لِلْفَيْءِ هُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَتَرَضَّى عَنْهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؛ فَلَيْسَ لَهُ فِي الْفَيْءِ حَظٌّ؛ يَقُولُ أَنَسٌ – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ –: «مَنْ سَبَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَلَيْسَ لَهُ فِي الْفَيْءِ نَصِيبٌ؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى – يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ».

وَلِعَظِيمِ فَضْلِ الصَّحَابَةِ، وَكَبِيرِ قَدْرِهِمْ؛ فَإِنَّ عَمَلَهُمْ مُضَاعَفٌ، وَأَجْرَهُمْ مَوْفُورٌ؛ لِكَوْنِهِمْ نَصَرُوا الْإِسْلَامَ، وَأَنْفَقُوا مِنْ أَجْلِ رِفْعَتِهِ، فِي حَالِ قِلَّةِ أَهْلِهِ، وَكَثْرَةِ الصَّوَارِفِ عَنْهُ، وَضَعْفِ الدَّوَاعِي إِلَيْهِ.

يَقُولُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – كَمَا فِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ –: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»؛ فَإِنْفَاقُ أَحَدِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مُدَّ بُرٍّ أَوْ نِصْفَ مُدِّ بُرٍّ أَفْضَلُ مِنْ نَفَقَةِ مَنْ بَعْدَهُمْ ذَهَبًا

خَالِصًا وَزْنُهُ كَجَبَلِ أُحُدٍ، وَ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١، الجمعة: ٤].

وَكَمَا أَنَّ مَحَبَّةَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قُرْبَةٌ، فَإِنَّ سَبَّهُمْ أَوْ بُغْضَهُمْ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَنِفَاقٌ مُبِينٌ؛ يَقُولُ الْإِمَامُ أَبُو زُرْعَةَ – رَحِمَهُ اللهُ –: «إِذَا رَأَيْتُمْ رَجُلًا يَتَنَقَّصُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ زِنْدِيقٌ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وَأَنَّ الرَّسُولَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حَقٌّ، وَإِنَّمَا نَقَلَ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ وَهَذِهِ السُّنَنَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَإِنَّمَا يُرِيدُونَ أَنْ يَقْدَحُوا فِي شُهُودِنَا؛ لِيُبْطِلُوا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَالْجَرْحُ بِهِمْ أَوْلَى؛ فَإِنَّهُمْ زَنَادِقَةٌ».

وَيَقُولُ الْعَلَّامَةُ النَّوَوِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَرَضِيَ عَنْهُ –: «اعْلَمْ أَنَّ سَبَّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُحَرَّمٌ مِنْ أَكْبَرِ الْفَوَاحِشِ، وَمَذْهَبُ أَصْحَابِنَا وَجُمْهُورِ الْأُمَّةِ أَنَّ مَنْ سَبَّهُمْ يُعَزَّرُ، وَقَالَ بَعْضُ الْمَالِكِيَّةِ: مَنْ سَبَّهُمْ يُقْتَلُ».

فَيَا عِبَادَ اللهِ، اقْرَؤُوا فَضَائِلَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَعَلِّمُوهَا أَبْنَاءَكُمْ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ دَافِعًا لِلتَّأَسِّي بِهِمْ،

وَحَاثًّا لِتَعْظِيمِهِمْ وَتَوْقِيرِهِمْ وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ، وَ – أَيْضًا – مَانِعًا مِنْ أَشَدِّ الْمَوَانِعِ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهِمْ، أَوْ بُغْضِهِمْ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

عِبَادَ اللهِ، لَمَّا احْتُضِرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ كَمَا فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ): «أُوصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ: أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَأَنْ يَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ. وَأُوصِيهِ بِالْأَنْصَارِ الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَأَنْ يَعْفُوَ عَنْ مُسِيئِهِمْ».

فَلَئِنْ ذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ بِأَجْسَادِهِمْ فَإِنَّ الْأُسْوَةَ بِهِمْ بَاقِيَةٌ؛ فَلْيَرْعَ الْمُسْلِمُونَ حَقَّهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ، وَالتَّرَضِّي عَنْهُمْ، وَالتَّرَحُّمِ عَلَيْهِمْ، وَلْيَحْفَظُوا لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ؛ فَإِنَّ مَنْ تَأَسَّى بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَفْلَحَ دِينًا وَدُنْيَا.

الْخُطْبَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ:

فَضْلُ الْعَشْرِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ هَذِهِ الْأَيَّامَ الَّتِي تَعِيشُونَ فِيهَا أَيَّامٌ مُبَارَكَةٌ مَشْهُودَةٌ، أَقْسَمَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – بِهَا فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿وَالْفَجْرِ • وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١-٢]، وَإِقْسَامُهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – بِهَا لِإِظْهَارِ شَرَفِهَا، وَبَيَانِ مَزِيَّتِهَا.

وَلِذَا؛ فَإِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ فِيهَا يَخْتَلِفُ عَنْ سَائِرِ الْأَيَّامِ.

ثَبَتَ فِي (الْبُخَارِيِّ) وَغَيْرِهِ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ – يَعْنِي الْعَشْرَ –. قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: وَلَا الْجِهَادُ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ».

فَحَرِيٌّ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يُسَابِقَ إِلَى الطَّاعَاتِ، وَأَنْ يَبْتَدِرَ الْخَيْرَاتِ، وَأَنْ يَسْتَغِلَّ هَذِهِ الْأَيَّامَ الْمُبَارَكَةَ؛ فَيُرِيَ اللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – مِنْ نَفْسِهِ خَيْرًا.

وَإِنَّ مِمَّا شَرَعَهُ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – فِي شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ: الْأَضَاحِيَ، الَّتِي هِيَ سُنَّةُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –، وَسُنَّةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –. وَهَذِهِ الْأَضَاحِي شَعِيرَةٌ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ، وَمَا تُقُرِّبَ إِلَى اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – فِي يَوْمِ النَّحْرِ بِأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ إِرَاقَةِ دَمٍ.

وَهَذِهِ الْأَضَاحِي يُشْتَرَطُ فِيهَا شُرُوطٌ؛ مِنْهَا: أَنْ تَكُونَ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ، وَأَنْ تَبْلُغَ هَذِهِ الْبَهِيمَةُ السِّنَّ الْمُعْتَبَرَ شَرْعًا؛ فَفِي الْإِبِلِ خَمْسُ سِنِينَ، وَفِي الْبَقَرِ سَنَتَانِ، وَفِي الْمَاعِزِ سَنَةٌ، وَفِي الضَّأْنِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ.

وَمِنَ الشُّرُوطِ – أَيْضًا –: أَنْ تَكُونَ الْأُضْحِيَّةُ سَلِيمَةً مِنَ الْعُيُوبِ الْمَانِعَةِ مِنَ الْإِجْزَاءِ؛ وَهِيَ أَرْبَعَةٌ لَا غَيْرُ، حَصَرَهَا النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي قَوْلِهِ كَمَا فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: «أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الْأَضَاحِي: الْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوَرُهَا، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا، وَالْعَرْجَاءُ الْبَيِّنُ ضَلَعُهَا، وَالْعَجْفَاءُ الَّتِي لَا تُنْقِي»، أَخْرَجَهُ أَصْحَابُ السُّنَنِ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ. فَقَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ نَقْصٌ فِي الْأُذُنِ أَوْ فِي الْقَرْنِ. فَقَالَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –: مَا كَرِهْتَ فَدَعْهُ، وَلَا تُحَرِّمْهُ عَلَى أَحَدٍ.

فَهَذِهِ الْأَرْبَعُ لَا تَجُوزُ فِي الْأَضَاحِي أَبَدًا، فَيُقَاسُ عَلَيْهَا مَا هُوَ أَفْحَشُ مِنْهَا عَيْبًا؛ فَقَوْلُهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – فِي كُلِّ عَيْبٍ مِنْ هَذِهِ الْعُيُوبِ: «الْبَيِّنُ... الْبَيِّنُ» يُفِيدُ أَنَّ الْعَيْبَ إِذَا كَانَ غَيْرَ بَيِّنٍ فَإِنَّ الْأُضْحِيَّةَ تُجْزِئُ؛ فَالْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوَرُهَا الَّتِي نَتَأَتْ عَيْنُهَا أَوْ غَارَتْ عَيْنُهَا هَذِهِ هِيَ الَّتِي لَا تُجْزِئُ، أَمَّا إِذَا كَانَتْ عَوْرَاءَ وَعَوَرُهَا غَيْرُ بَيِّنٍ فَإِنَّهَا تُجْزِئُ مَعَ الْكَرَاهَةِ.

وَمِنَ الشُّرُوطِ – أَيْضًا – فِي الْأُضْحِيَّةِ: أَنْ تَقَعَ فِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ شَرْعًا؛ وَهُوَ مَا بَعْدَ صَلَاةِ الْعِيدِ، وَالْأَفْضَلُ أَنْ يَكُونَ الذَّبْحُ بَعْدَ الْخُطْبَتَيْنِ؛ تَأَسِّيًا بِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَشَاتُهُ شَاةُ لَحْمٍ يُطْعِمُهُ أَهْلَهُ، وَأَمَّا مَنْ ذَبَحَ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَإِنَّ ذَبْحَهُ نُسُكٌ أَصَابَ بِهِ سُنَّةَ الْمُسْلِمِينَ.

عِبَادَ اللهِ، وَمِمَّا شَرَعَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – لَكُمْ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ: التَّكْبِيرُ، مُطْلَقًا كَانَ أَوْ مُقَيَّدًا؛ فَالتَّكْبِيرُ الْمُطْلَقُ هُوَ الَّذِي يَبْتَدِئُ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَيَنْتَهِي بِفَجْرِ يَوْمِ عَرَفَةَ، فَيُكَبِّرُ فِيهِ الْمُسْلِمُ تَكْبِيرًا مُطْلَقًا فِي أَيِّ مَكَانٍ كَانَ؛ فَيُكَبِّرُ فِي الْمَسْجِدِ قَبْلَ الصَّلَوَاتِ، وَيُكَبِّرُ فِي سُوقِهِ، وَيُكَبِّرُ فِي مَتْجَرِهِ،

وَيُكَبِّرُ فِي بَيْتِهِ، قَائِلًا شَفْعًا: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

فَإِذَا بَزَغَ فَجْرُ يَوْمِ عَرَفَةَ فَإِنَّهُ يَقْطَعُ التَّكْبِيرَ الْمُطْلَقَ، وَيُبْتَدَأُ فِي التَّكْبِيرِ الْمُقَيَّدِ، بِأَنْ يَكُونَ تَكْبِيرُهُ دُبُرَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فَقَطْ؛ فَإِذَا صَلَّى الْفَجْرَ يَوْمَ عَرَفَةَ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. وَهَكَذَا إِذَا صَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ الْعَصْرَ، ثُمَّ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ الْعِشَاءَ، وَيَمْتَدُّ هَذَا التَّكْبِيرُ إِلَى آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ: الْإِجْمَاعُ عَنِ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ –، عَنْ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، وَعَلِيٍّ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ –، وَقَدْ رُوِيَتْ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلَا تَثْبُتُ.

عِبَادَ اللهِ، فَإِذَا دَخَلَتِ الْعَشْرُ وَأَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يُضَحِّيَ؛ فَلَا يَجُوزُ لَهُ شَرْعًا أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا مِنْ ظُفْرِهِ أَوْ مِنْ شَعْرِهِ أَوْ مِنْ بَشَرَتِهِ؛ لِحَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا – فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ).

وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ لَا يُرِيدُ أَنْ يُضَحِّيَ؛ فَأَخَذَ مِنْ ظُفْرِهِ وَمِنْ شَعْرِهِ، حَتَّى جَاءَ يَوْمُ النَّحْرِ فَأَرَادَ عِنْدَئِذٍ أَنْ يُضَحِّيَ.. فَلْيُضَحِّ؛ إِذْ

لَا تَأْثِيرَ عَلَى أَخْذِهِ لِشَعْرِهِ وَأَظْفَارِهِ آنَذَاكَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَخَذَ الشَّعْرَ وَالظُّفْرَ فِي حَالٍ يُرِيدُ أَنْ لَا يُضَحِّيَ مَعَهَا.

فَاتَّقُوا اللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – عِبَادَ اللهِ –، وَاجْتَنِبُوا هَذَا الْمَحْظُورَ الْعَظِيمَ؛ لِأَنَّ اللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – يُحِبُّ مِنْكُمْ أَنْ تَحْبِسُوا أَنْفُسَكُمْ عَنْ أَخْذِ شُعُورِكُمْ وَأَظْفَارِكُمْ حَتَّى تُرِيقُوا الدِّمَاءَ قُرْبَةً لِلَّهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –.

الْخُطْبَةُ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ:

فَضْلُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ الْعِنَايَةَ بِكِتَابِ اللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – قِرَاءَةً وَحِفْظًا وَتَدَبُّرًا وَتَفَكُّرًا مِنْ شَرَائِعِ اللهِ الَّتِي حَثَّ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – عَلَيْهَا، وَأَمَرَ بِهَا، وَرَتَّبَ عَلَيْهَا ثَوَابًا كَثِيرًا.

فَخَيْرُ النَّاسِ بِشَهَادَةِ خَيْرِ النَّاسِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – «مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».

وَ«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الْأُتْرُجَّةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ. وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ؛ لَا رِيحَ لَهَا، وَطَعْمُهَا حُلْوٌ».

«وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَؤُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ لَهُ أَجْرَانِ».

وَ«الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ» – عَافَانَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ هَذَا الْوَصْفِ –.

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ جَاءَ التَّرْغِيبُ فِي قِرَاءَةِ كِتَابِ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا – عَلَى نَوْعَيْنِ:

الْأَوَّلُ: التَّرْغِيبُ فِي قِرَاءَتِهِ مُطْلَقًا؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: ﴿الم﴾ حَرْفٌ؛ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»، خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ

يُحِبُّ أَنْ يَنْطَلِقَ إِلَى بُطْحَانَ أَوِ الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ بِنَاقَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ إِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كُلُّنَا يُحِبُّ ذَلِكَ. فَقَالَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ [خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ]، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ مِنْ أَرْبَعٍ وَأَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ»، خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ».

فَهَذَا طَرَفٌ يَسِيرٌ مِمَّا جَاءَ فِي التَّرْغِيبِ فِي قِرَاءَةِ كِتَابِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –.

فَإِذَا سَمِعَهُ الْمُسْلِمُ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ أَنْ يُسَارِعَ وَأَنْ يُنَافِسَ فِي قِرَاءَةِ كِتَابِ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا – آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وَأَنْ يَعْمُرَ وَقْتَهُ بِقِرَاءَةِ كِتَابِ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا –؛ فَبِقِرَاءَتِهِ يَحْصُلُ الثَّوَابُ الْكَثِيرُ، وَبِقِرَاءَتِهِ تَسْلَمُ النَّفْسُ مِنْ عُقَدِهَا وَأَدْوَائِهَا؛ ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وَبِقِرَاءَتِهِ يَنْكَفُّ الْمُسْلِمُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ اللَّفْظِيَّةِ، وَعَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُبَاحَاتِ اللَّفْظِيَّةِ الَّتِي يُسْتَغْنَى عَنْهَا وَلَا يُنْتَفَعُ بِهَا.

إِنَّ الْعَجَبَ – يَا عِبَادَ اللهِ – مِنْ أُنَاسٍ جَعَلُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَرْضًا كُلَّ يَوْمٍ يَقْرَؤُونَ الصُّحُفَ وَالْمَجَلَّاتِ، وَإِذَا رَاقَبْتَهُمْ فِي كِتَابِ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا – وَجَدْتَهُمْ قَدْ فَرَّطُوا أَيَّمَا تَفْرِيطٍ؛ تَمْضِي عَلَيْهِمُ الْأَسَابِيعُ وَالشُّهُورُ – بَلْ وَالسَّنَوَاتُ!! – لَا يَقْرَؤُونَ مِنْ كِتَابِ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا – إِلَّا شَيْئًا يَسِيرًا، وَهَؤُلَاءِ مَغْبُونُونَ؛ قَدْ فَرَّطُوا فِي ثَوَابٍ كَبِيرٍ، وَوَقَعُوا فِي رَزِيَّةٍ عَظِيمَةٍ.

أَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ أَنْوَاعِ التَّرْغِيبِ فِي قِرَاءَةِ كِتَابِ اللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –؛ فَهُوَ التَّرْغِيبُ فِي قِرَاءَةِ سُوَرٍ مُعَيَّنَةٍ وَآيَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقْرَأَهَا دَوْمًا، وَأَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهَا.

فَمِنْ ذَلِكَ: مَا جَاءَ فِي (صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – قَالَ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ بِثُلُثِ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ؟! فَقَالَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ • اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١-٢] تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»، يَعْنِي أَنَّ ثَوَابَ قِرَاءَتِهَا يَعْدِلُ ثَوَابَ قِرَاءَةِ ثُلُثِ الْقُرْآنِ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ – تَعَالَى – وَتَيْسِيرِهِ.

وَثَبَتَ – أَيْضًا – عَنْهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ؛ كَفَتَاهُ»: قِيلَ: كَفَتَاهُ الْمَكْرُوهَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ. وَقِيلَ: كَفَتَاهُ قِيَامَ اللَّيْلِ.

وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ وَغَيْرُهُ بِسَنَدٍ حَسَنٍ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «سُورَةُ الْمُلْكِ هِيَ الْمَانِعَةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ».

فَاحْرِصُوا عَلَى مِثْلِ هَذِهِ السُّوَرِ وَالْآيَاتِ، وَاقْرَؤُوهَا دَوْمًا وَأَبَدًا؛ لِتَسْتَفِيدُوا دِينًا وَدُنْيَا.

أَيُّكُمْ – يَا عِبَادَ اللهِ – يُحِبُّ أَنْ لَا يُكْتَبَ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَأَيُّكُمْ – يَا عِبَادَ اللهِ – يُحِبُّ أَنْ يُكْتَبَ مِنَ الْقَانِتِينَ؟!

ثَبَتَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – فِي (مُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ) وَغَيْرِهِ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ فِي لَيْلَةٍ؛ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ».

وَفِي (صَحِيحِ ابْنِ خُزَيْمَةَ) وَ(مُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ) وَغَيْرِهِمَا بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «مَنْ قَرَأَ فِي لَيْلَةٍ مِئَةَ آيَةٍ؛ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ».

عِبَادَ اللهِ، احْذَرُوا هَجْرَ كِتَابِ اللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –؛ فَإِنَّ هَجْرَ كِتَابِ اللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – مُصِيبَةٌ عَظِيمَةٌ وَرَزِيَّةٌ كَبِيرَةٌ يَرْبَأُ عَنْهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَا يَقَعُ فِيهَا إِلَّا مَغْبُونٌ.

وَهَجْرُ كِتَابِ اللهِ يَكُونُ بِهَجْرِ قِرَاءَتِهِ وَالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ، وَيَكُونُ بِهَجْرِ اسْتِمَاعِهِ، وَيَكُونُ بِهَجْرِ الِاسْتِشْفَاءِ وَالتَّدَاوِي بِهِ، وَيَكُونُ بِهَجْرِ التَّحَاكُمِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ؛ فَكُلُّ ذَلِكَ دَاخِلٌ تَحْتَ قَوْلِ اللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

فَاعْمُرُوا أَوْقَاتَكُمْ بِقِرَاءَةِ كِتَابِ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا –، وَحُثُّوا أَهْلَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؛ تَغْنَمُوا خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

الْخُطْبَةُ السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ:

قِصَّةُ الثَّلَاثَةِ نَفَرٍ

عِبَادَ اللهِ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُمَا – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَتَّى آوَاهُمُ الْمَبِيتُ إِلَى

غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ – جَلَّ وَعَلَا – بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ.

قَالَ الْأَوَّلُ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِطُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَنَأَى بِي طَلَبُ الشَّجَرِ يَوْمًا؛ فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوطَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَوَضَعْتُ الْقَدَحَ عَلَى يَدِي أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا، حَتَّى بَزَغَ الْفَجْرُ، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَا أَعْطَيْتُهُمَا غَبُوطَهُمَا فَشَرِبَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ. فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا يَسِيرًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ.

قَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ؛ فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي، فَأَصَابَتْهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ؛ فَجَاءَتْ إِلَيَّ، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِئَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ، فَلَمَّا قَدِرْتُ عَلَيْهَا – وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا – قَالَتِ: اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ.

قَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ أَجِيرٍ مِنْهُمْ أَجْرَهُ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ ذَهَبَ وَتَرَكَ الَّذِي لَهُ، فَثَمَّرْتُ لَهُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ، أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي. فَقُلْتُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنَ الْمَالِ لَكَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ. فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ، لَا تَسْتَهْزِئْ بِي. فَقُلْتُ: لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ.

فَانْفَرَجَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ، وَخَرَجُوا يَمْشُونَ».

عِبَادَ اللهِ، هَذِهِ قِصَّةٌ ذَاتُ عِبَرٍ عَظِيمَةٍ وَعِظَاتٍ جَلِيلَةٍ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ النَّفَرَ الثَّلَاثَةَ عَمِلُوا أَعْمَالًا صَالِحَةً فِي الرَّخَاءِ، فَلَمَّا وَقَعَتْ بِهِمْ كُرْبَةٌ وَشِدَّةٌ سَأَلُوا اللهَ – جَلَّ وَعَلَا – بِصَالِحِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي فَعَلُوهَا حَالَ الرَّخَاءِ؛ فَفَرَّجَ اللهُ كُرْبَتَهُمْ، وَأَقَالَ عَثْرَتَهُمْ، وَهَكَذَا: مَنْ تَعَرَّفَ عَلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ؛ تَعَرَّفَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الشِّدَّةِ.

فَالْأَوَّلُ ذَكَرَ بِرَّهُ بِوَالِدَيْهِ، وَإِحْسَانَهُ إِلَيْهِمَا، وَرَأْفَتَهُ بِهِمَا، وَهَذِهِ صُورَةٌ جَلِيلَةٌ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ نَصْبَ عَيْنَيْ كُلِّ مُسْلِمٍ دَوْمًا وَأَبَدًا؛ يَحْتَذِي حَذْوَهَا، وَيَسْعَى إِلَى تَطْبِيقِهَا مَعَ وَالِدَيْهِ؛ فَهِيَ صُورَةٌ جَلِيلَةٌ تَتَجَلَّى فِيهَا أَسْمَى صِفَاتِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ،

وَنَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى ذَلِكَ حَاجَةً مَاسَّةً، لَاسِيَّمَا فِي هَذَا الْوَقْتِ الَّذِي طَغَتْ فِيهِ الْمَادَّةُ، وَانْشَغَلَ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ بِنَفْسِهِ؛ فَحَرِيٌّ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يُحْسِنَ إِلَى وَالِدَيْهِ وَأَنْ يَبَرَّهُمَا، لَاسِيَّمَا إِذَا بَلَغَ الْكِبَرُ مِنْهُمَا مَبْلَغًا لَا يَسْتَطِيعَانِ مَعَهُ دَفْعَ ضُرٍّ عَنْ أَنْفُسِهِمْ أَوْ جَلْبَ خَيْرٍ لِأَنْفُسِهِمْ.

وَالثَّانِي ذَكَرَ تَعَفُّفَهُ عَنِ الْحَرَامِ، وَتَجَنُّبَهُ إِيَّاهُ فِي حَالِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالظَّفَرِ بِهِ، وَذَلِكَ أَجَلُّ مَا يَفْعَلُهُ الْمُسْلِمُ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يُرَاقِبُهُ، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غَافِر: ١٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٥].

وَإِذَا خَلَوْتَ بِرِيبَةٍ فِي ظُلْمَةٍ وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى الْعِصْيَانِ

فَاسْتَحْيِ مِنْ نَظَرِ الْإِلَهِ وَقُلْ لَهَا إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلَامَ يَرَانِي

وَالثَّالِثُ ذَكَرَ أَدَاءَهُ لِلْأَمَانَةِ، وَمُحَافَظَتَهُ عَلَيْهَا، وَإِيفَاءَهُ بِالْعُقُودِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – بِإِيفَائِهَا، وَذَلِكَ عَمَلٌ صَالِحٌ جَلِيلٌ قَلَّ مَنْ يَلْتَزِمُهُ، لَاسِيَّمَا فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ.

فَإِلَى الَّذِينَ يَتَسَاهَلُونَ فِي حُقُوقِ الْعُمَّالِ وَمُرَتَّبَاتِهِمْ – إِلَى هَؤُلَاءِ – نَقُولُ: يَجِبُ أَنْ تَنْظُرُوا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ الطَّيِّبَةِ؛ وَهِيَ وَفَاءُ هَذَا الرَّجُلِ، وَمَاذَا جَازَاهُ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – عَلَى ذَلِكَ: إِنَّ اللهَ جَازَاهُ بِتَفْرِيجِ كُرْبَتِهِ، وَإِزَالَةِ الشِّدَّةِ عَنْهُ، وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا مُخْلِصًا لِلَّهِ – جَلَّ وَعَلَا – فِيهِ.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ عَمِلُوا تِلْكَ الْأَعْمَالَ الَّتِي سَمِعْتُمْ وَهُمْ مُخْلِصُونَ لِلَّهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – فِيهَا، فَلِذَا؛ أَثَّرَتْ هَذَا التَّأْثِيرَ، وَنَفَعَتْ هَذَا النَّفْعَ؛ فَكُلُّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ الْمُسْلِمُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ – جَلَّ وَعَلَا –؛ لِيُؤْتِيَ ثِمَارَهُ دِينًا وَدُنْيَا.

الْخُطْبَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: مِنْ أَحْكَامِ الْحَجِّ

عِبَادَ اللهِ، لَقَدْ فَرَضَ اللهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – الْحَجَّ عَلَى عِبَادِهِ، وَجَعَلَهُ رَسُولُهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ؛ فَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي عُمُرِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً؛ تَخْفِيفًا مِنَ اللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – وَتَيْسِيرًا.

وَهَذَا الْحَجُّ لَا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ إِلَّا إِذَا تَوَفَّرَتْ لَهُ شُرُوطُهُ؛ مِنْهَا: أَنْ يَكُونَ الْحَاجُّ بَالِغًا؛ فَأَمَّا الصَّغِيرُ فَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ الْحَجُّ، فَإِنْ

حَجَّ أُجِرَ عَلَى هَذَا الْحَجِّ، وَمَتَى مَا بَلَغَ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَحُجَّ حَجَّةَ الْإِسْلَامِ.

وَمِنْ شُرُوطِهِ – أَيْضًا –: أَنْ يَكُونَ الْحَاجُّ عَاقِلًا لَيْسَ مَجْنُونًا؛ فَإِنَّ الْمَجْنُونَ لَا حَجَّ عَلَيْهِ، لَكِنْ مَنْ بَلَغَ وَهُوَ عَاقِلٌ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْحَجُّ ثُمَّ جُنَّ فَإِنَّ الْحَجَّ بَاقٍ فِي ذِمَّتِهِ.

وَمِنْ شُرُوطِ الْحَجِّ – أَيْضًا –: أَنْ يَكُونَ الْحَاجُّ حُرًّا لَيْسَ مَمْلُوكًا.

وَمِنْ شُرُوطِهِ – أَيْضًا –: أَنْ يَكُونَ الْحَاجُّ مُسْتَطِيعًا؛ لِأَنَّ اللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – شَرَطَ الْوُجُوبَ بِالِاسْتِطَاعَةِ؛ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٩٧]، وَالِاسْتِطَاعَةُ تَكُونُ بِالْمَالِ وَبِالْبَدَنِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَطِيعًا بِمَالِهِ أَوْ بِبَدَنِهِ؛ فَإِنَّ الْحَجَّ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ. وَالدَّيْنُ مَانِعٌ مِنْ مَوَانِعِ وُجُوبِ الْحَجِّ؛ لِأَنَّ الْمَدْيُونَ فَقِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْحَجَّ بِمَالِهِ، وَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يُبْرِئَ ذِمَّتَهُ أَوَّلًا.

وَمِنْ فُرُوعِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا لَمْ تَجِدْ مَحْرَمًا؛ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهَا الْحَجُّ؛ لِأَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ عِنْدَئِذٍ الْحَجَّ، وَالشَّارِعُ مَنَعَهَا مِنَ الْحَجِّ بِدُونِ مَحْرَمٍ، وَلِذَا؛ فَإِنَّهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – خَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: «وَلَا تُسَافِرُ الْمَرْأَةُ إِلَّا

مَعَ ذِي مَحْرَمٍ. فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً، وَإِنِّي اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ لَهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: انْطَلِقْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ»، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى وُجُوبِ حَجِّ الْمَرْأَةِ مَعَ مَحْرَمِهَا، وَمَحْرَمُ الْمَرْأَةِ هُوَ مَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ الْمَرْأَةُ تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا؛ إِمَّا بِنَسَبٍ، أَوْ رَضَاعَةٍ، أَوْ مُصَاهَرَةٍ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، يُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُبَادِرَ بِأَدَاءِ فَرِيضَةِ اللهِ الْحَجِّ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ؛ فَقَدْ يَتَوَفَّاهُ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وَهُوَ لَمْ يَأْتِ بِهَذِهِ الْفَرِيضَةِ وَهَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ. وَلِذَا؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يُعَجِّلَ الْمُسْلِمُ أَدَاءَ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ، وَبَعْضُهُمْ يُوجِبُ عَلَيْهِ ذَلِكَ مَتَى مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَسْتَحْضِرَ النِّيَّةَ عِنْدَ أَدَائِهِ لِلْحَجِّ؛ فَيَجْعَلَ نِيَّتَهُ فِي هَذَا الْحَجِّ أَدَاءَ فَرِيضَةِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –، وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ – تَعَالَى – بِأَدَاءِ الْمَنَاسِكِ، وَلْيَحْذَرْ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ أَنْ يُخَالِطَ نِيَّتَهُ شَيْءٌ مِنَ الدَّخَائِلِ؛ فَبَعْضُ النَّاسِ يَحُجُّ لِلنُّزْهَةِ، وَالتَّرَفُّهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَاعْلَمُوا – عِبَادَ اللهِ – أَنَّ لِلْحَجِّ فَضْلًا عَظِيمًا عِنْدَ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – إِذَا أَدَّاهُ الْمُسْلِمُ كَمَا أُمِرَ؛ يَقُولُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: «وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»، وَالْمَبْرُورُ – كَمَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ – هُوَ الْخَالِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –.

وَيَقُولُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»، «فَلَمْ يَرْفُثْ»: الرَّفَثُ هُوَ الْجِمَاعُ، وَكُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِمُحَادَثَةِ الرَّجُلِ مَعَ الْمَرْأَةِ عَلَى سَبِيلِ الشَّهْوَةِ. فَالَّذِي يَحُجُّ وَحَجُّهُ بَرِيءٌ مِنْ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ؛ فَإِنَّ حَجَّهُ مَبْرُورٌ مُتَقَبَّلٌ – إِنْ شَاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –.

وَلْيَرْعَ الْمُسْلِمُ أَمْرًا آخَرَ هُوَ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ بِمَكَانٍ؛ أَلَا وَهُوَ أَنَّ النَّفَقَةَ الْمُسْتَخْدَمَةَ فِي الْحَجِّ نَفَقَةٌ طَيِّبَةٌ؛ فَ«إِنَّ اللهَ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا».

إِذَا أَنْتَ حَجَجْتَ بِمَالٍ أَصْلُهُ سُحْتُ

فَمَا حَجَجْتَ وَلَكِنْ حَجَّتِ الْعِيرُ

لَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا كُلَّ خَالِصَةٍ مَا كُلُّ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللهِ مَبْرُورُ

فَاتَّقُوا اللهَ – عِبَادَ اللهِ –، وَانْظُرُوا فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي تَدْفَعُونَهَا لِحَجِّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، فَإِنْ كَانَتْ مِنْ مَصْدَرٍ حَلَالٍ وَرِزْقٍ حَلَالٍ فَهَنِيئًا لَكُمْ، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ ذَلِكَ فَوَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَتُوبَ إِلَى اللهِ مِنْ مَكَاسِبِ الْحَرَامِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَجْتَنِبَ الْحَجَّ بِهَا.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُوَكِّلُونَ فِي حِجَجِهِمْ أُنَاسًا لَا يُرْتَضَوْنَ؛ إِذْ أَنَّهُمْ يُسَاوِمُونَ عَلَى هَذِهِ الْحِجَجِ وَيُغَالُونَ فِيهَا؛ فَمَنْ دَفَعَ لَهُمْ أَكْثَرَ؛ انْسَاقُوا إِلَيْهِ وَقَامُوا بِالْحَجِّ عَنْهُ، وَمَنْ لَمْ يُعْطِهِمْ إِلَّا الْقَلِيلَ؛ فَإِنَّهُمْ يُعْرِضُونَ عَنْهُ.

وَهَؤُلَاءِ لَا شَكَّ أَنَّهُمْ خَاسِرُونَ، وَأَنَّ مَنْ أَعْطَاهُمْ وَهُوَ يَعْلَمُ حَالَهُمْ – أَنَّهُ – قَدْ فَرَّطَ تَفْرِيطًا عَظِيمًا؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالتَّوَكُّلِ فِي الْحَجِّ: أَنْ يَبَرَّ الْمُسْلِمُ بِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ، وَأَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْمَشَاعِرِ الْمُقَدَّسَةِ فِي حَالَةِ عَدَمِ قُدْرَتِهِ وَعَدَمِ اسْتِطَاعَتِهِ الْمَالِيَّةِ؛ لِيَشْهَدَ الْحَجَّ مَعَ النَّاسِ. أَمَّا مَنْ قَصَدَ بِأَخْذِ الْحِجَجِ التَّأَكُّلَ وَالتَّكَثُّرَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْ وَجْهَ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –.

فَاتَّقُوا اللهَ – عِبَادَ اللهِ –، وَانْظُرُوا فِي أَهْلِ الدِّينِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَكِّلُوهُمْ فِي حِجَجِكُمْ؛ عَلَّ اللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنْكُمْ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ التَّوْكِيلَ لَا يَصِحُّ إِلَّا إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ عَاجِزًا عَجْزًا كُلِّيًّا عَنْ أَدَاءِ الْحَجِّ بِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّ الْحَجَّ عِبَادَةٌ بَدَنِيَّةٌ؛ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُؤَدِّيَهَا بِنَفْسِهِ. فَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ؛ بِأَنْ كَانَ بِهِ مَرَضٌ لَا يُرْجَى بُرْؤُهُ، أَوْ كَانَ ذَهَابُهُ إِلَى الْحَجِّ يَشُقُّ بِهِ مَشَقَّةً عَظِيمَةً – فَإِنَّهُ يَصِحُّ لَهُ عِنْدَئِذٍ التَّوْكِيلُ فِي الْفَرِيضَةِ.

أَمَّا فِي النَّافِلَةِ فَإِنَّ أَصَحَّ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ – وَهُوَ إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللهُ –: لَا يَصِحُّ التَّوْكِيلُ فِيهَا؛ بَلْ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُؤَدِّيَ النَّافِلَةَ فِي الْحَجِّ بِنَفْسِهِ، فَإِذَا لَمْ يُرِدْ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يُوَكِّلُ غَيْرَهُ.

فَاتَّقُوا اللهَ – عِبَادَ اللهِ –، وَارْعَوْا حُرُمَاتِ اللهِ وَمَشَاعِرَ اللهِ، وَقُومُوا بِوَاجِبِ اللهِ كَمَا أَرَادَ اللهُ – تَعَالَى – مِنْكُمْ؛ يُؤْتِكُمُ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – أَجْرَكُمْ.

الْخُطْبَةُ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ: وَاجِبُ الْمُسْلِمِ تُجَاهَ أَخْطَاءِ إِخْوَانِهِ

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ الْأُخُوَّةَ فِي دِينِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – رَابِطَةٌ قَوِيَّةٌ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَهُمْ إِخْوَةٌ فِي دِينِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، يَجْمَعُهُمْ هَذَا الْإِيمَانُ؛ فَيَلْتَقُونَ عَلَيْهِ، وَيَتَّحِدُونَ تَحْتَ رَايَتِهِ؛ فَهُمْ إِخْوَةٌ وَإِنْ تَفَرَّقَتْ أَبْدَانُهُمْ، وَاخْتَلَفَتْ أَمَاكِنُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ أَلْوَانُهُمْ، يُحِبُّ الْمُؤْمِنُ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، كَيْفَ لَا وَاللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – قَدْ نَزَّلَ أَخَاكَ الْمُسْلِمَ مَنْزِلَةَ نَفْسِكَ فَقَالَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الْحُجُرَاتِ: ١١] أَيْ: إِخْوَانَكُمْ؟!

إِنَّ هَذِهِ الرَّابِطَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ رَابِطَةٌ مَنَّ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – بِهَا عَلَيْنَا، وَتَفَضَّلَ وَتَكَرَّمَ بِهَا، لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْأُخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ وَذَكَّرَهُمْ بِهَا: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٠٣].

أَلَا وَإِنَّ الضَّعْفَ مَا بَدَأَ يَسْرِي فِي الْمُسْلِمِينَ إِلَّا بِسَبَبِ التَّفْرِيطِ فِي حُقُوقِ هَذِهِ الْأُخُوَّةِ، وَضَعْفِ الْقِيَامِ بِمَا أَوْجَبَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ

– تُجَاهَهَا؛ فَقُوَّةُ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِإِيمَانٍ، وَالْإِيمَانُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِأَوْثَقِ عُرَاهُ؛ وَهُوَ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ.

وَإِنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ – هَدَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ – لَمْ يَكْتَفِ بِالتَّفْرِيطِ فِي حُقُوقِ هَذِهِ الْأُخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ؛ بَلْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ إِثْمًا مُبِينًا؛ وَهُوَ إِلْحَاقُ الضَّرَرِ بِإِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّرَرِ..

أَفَمَا عَلِمَ هَذَا وَأَمْثَالُهُ أَنَّ حُرْمَةَ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – عَظِيمَةٌ؟!

رَأَى ابْنُ عُمَرَ الْكَعْبَةَ فَقَالَ: «مَا أَعْظَمَكِ! وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ! وَلَلْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ حُرْمَةً مِنْكِ».

وَلِهَذِهِ الْحُرْمَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – يَغْضَبُ غَضَبًا شَدِيدًا إِذَا أُوذِيَ عَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ أَوْ أَمَتُهُ الْمُؤْمِنَةُ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ قَالَ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الْأَحْزَابِ: ٥٨].

حَمَلُوا عَلَى ظُهُورِهِمُ الْبُهْتَانَ – وَهُوَ الْكَذِبُ الْكَبِيرُ –، وَحَمَلُوا عَلَى ظُهُورِهِمُ الْإِثْمَ الْمُبِينَ – أَيْ: الْبَيِّنَ الْوَاضِحَ الَّذِي لَا عُذْرَ لِلْمَرْءِ فِي اقْتِرَافِهِ –؛ فَهَؤُلَاءِ ضَيَّعُوا حُقُوقَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – فِي

حِفْظِ الْأُخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ، وَانْتَهَكُوا حُرُمَاتِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – فِي إِلْحَاقِ الضَّرَرِ بِإِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ، وَالنَّبِيُّ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – يَقُولُ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِ مِنْكَ خَيْرٌ فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ تَكُفَّ أَذَاكَ عَنْهُ.

أَلَا وَإِنَّ صُوَرَ أَذِيَّةِ الْمُؤْمِنِينَ تَنْتَشِرُ وَتَكْثُرُ وَتَفْشُو شَيْئًا فَشَيْئًا؛ فَفِي كُلِّ يَوْمٍ تُخْرِجُ لَنَا الْأَيَّامُ صُورَةً مِنْ صُوَرِ أَذِيَّةِ الْمُؤْمِنِينَ تَقَعُ عَلَى أَيْدِي بَعْضِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْأُخُوَّةِ فِي الدِّينِ.

فَمِنْ أَعْظَمِ ذَلِكَ ضَرَرًا: أَذِيَّةُ الْمُؤْمِنِ بِاتِّهَامِهِ وَإِلْحَاقِ مَا يَشِينُهُ أَمَامَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَالزُّورِ؛ فَقَدْ ثَبَتَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ – أَنَّهُ قَالَ: «أَيُّمَا امْرِئٍ أَشَاعَ عَلَى امْرِئٍ مُسْلِمٍ كَلِمَةً وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ لِيَشِينَهُ بِهَا؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – أَنْ يُعَذِّبَهُ بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَأْتِيَ بِنَفَاذِ مَا قَالَ»، رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –.

فَكَثْرَةُ الْوُقُوعِ فِي أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ – لَاسِيَّمَا مَنْ كَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمْ، أَوْ مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ – بِالِافْتِرَاءِ عَلَيْهِمْ، وَالْكَذِبِ عَلَيْهِمْ، وَإِلْصَاقِ التُّهَمِ الْبَاطِلَةِ بِهِمْ.. هُوَ مِمَّا يُنَافِي حُقُوقَ الْأُخُوَّةِ الَّتِي ثَبَتَتْ بِقَطْعِيَّاتِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَهُوَ انْتِهَاكٌ صَرِيحٌ

لِحُدُودِ اللهِ وَحُرُمَاتِهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –؛ فَالتَّسَاهُلُ فِي هَذَا الْأَمْرِ جَرِيمَةٌ لَا تُغْتَفَرُ حَتَّى يَتُوبَ مِنْهَا الْمُؤْمِنُ وَيَرْجِعَ إِلَى اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –.

وَيَسْتَوِي فِي ذَلِكَ مَنْ نَطَقَ بِكَلِمَةِ الْإِثْمِ إِزَاءَ عَالِمٍ، أَوْ طَالِبِ عِلْمٍ، أَوْ إِزَاءَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، أَوْ إِزَاءَ امْرَأَةٍ مُسْلِمٍ.. – يَسْتَوِي هُوَ – وَمَنْ نَقَلَهَا وَنَشَرَهَا مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ؛ كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ – كَمَا رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ عَنْهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ: «الْقَائِلُ كَلِمَةَ الزُّورِ وَالَّذِي يَمُدُّ بِحَبْلِهَا فِي الْإِثْمِ سَوَاءٌ».

وَمِنْ صُوَرِ أَذِيَّةِ الْمُؤْمِنِينَ: مَا يَقَعُ مِنْ بَعْضِهِمْ مِنَ الِافْتِخَارِ بِذِكْرِ عُيُوبِهِمْ وَالتَّتَبُّعِ لِعَوْرَاتِهِمْ وَنَشْرِهَا بَيْنَ النَّاسِ؛ فَذَلِكَ مِنَ الْجَرَائِمِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي حَذَّرَ النَّبِيُّ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – مِنْهَا، وَجَاءَ فِعْلُ السَّلَفِ مُجَانِبًا لَهُ مُحَذِّرًا مِنْهَا؛ فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ –: «كُنَّا نُحَدِّثُ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ خَطَايَا أَفْرَغُهُمْ لِذِكْرِ عُيُوبِ النَّاسِ».

نَعَمْ! إِنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَفَرَّغُونَ لِذِكْرِ عُيُوبٍ لِإِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ؛ فَلَا هَمَّ لَهُمْ سِوَى الْوَقِيعَةِ فِي أَعْرَاضِهِمْ، وَتَصَيُّدِ أَخْطَائِهِمْ – أُولَئِكَ – قَدْ مَكَرَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – بِهِمْ؛ فَأَشْغَلَهُمْ بِعُيُوبِ النَّاسِ

عَنْ عُيُوبِ أَنْفُسِهِمْ، وَذَلِكَ عُنْوَانُ غَضَبِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – عَلَيْهِمْ؛ كَمَا قَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْمُزَنِيُّ: «إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ مُوَكَّلًا بِعُيُوبِ النَّاسِ نَاسِيًا لِعَيْبِ نَفْسِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ مُكِرَ بِهِ»، وَإِذَا مَكَرَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – بِهِ فَإِنَّهُ سَوْفَ يَهِيمُ فِي أَوْدِيَةِ الضَّلَالِ، وَسَوْفَ يَتَفَرَّدُ بِهِ الشَّيْطَانُ؛ فَيُرْدِيهِ فِي مَهَاوِي الرَّدَى.

وَلِهَذَا؛ نَبَّهَ النَّبِيُّ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – عَلَى هَؤُلَاءِ فِي قَوْلِهِ: «يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ الْقَذَى فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَنْسَى الْجِذْعَ مُعْتَرِضًا فِي عَيْنِهِ»، فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ قُدْوَةٌ يَؤُزُّهَا الشَّيْطَانُ لِتَصَيُّدِ الْأَخْطَاءِ وَالْوُقُوعِ عَلَيْهَا؛ حَتَّى أَنَّهُمْ لَيَرَوْنَ الشَّيْءَ الصَّغِيرَ الَّذِي لَا يُرَى إِلَّا بِالْمِجْهَرِ وَنَحْوِهِ، وَهَذَا الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي قَوْلِهِ: «يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ الْقَذَى فِي عَيْنِ أَخِيهِ»، وَالْقَذَى هُوَ كَالشَّعَرِ وَنَحْوِهِ إِذَا وَقَعَ فِي الْعَيْنِ.

فَكَانَ أَنْ عَاقَبَهُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – بِعُقُوبَةٍ صَارِمَةٍ؛ حَيْثُ أَلْهَاهُ بِتَتَبُّعِ هَذِهِ الْعُيُوبِ، وَأَنْسَاهُ عَنْ عَيْبِ نَفْسِهِ الَّذِي هُوَ كَبِيرٌ جِدًّا كَجِذْعِ النَّخْلِ؛ وَذَلِكَ لِيَحِقَّ مَكْرُ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – عَلَيْهِ؛ فَيَقْدَمُ عَلَى اللهِ – تَعَالَى – وَهُوَ غَيْرُ تَائِبٍ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ، غَيْرُ مُسْتَغْفِرٍ لَهُ.

فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، اتَّقُوا اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – فِي أُخُوَّةِ الدِّينِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – عَلَيْكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ تَقْرِيرَهَا فِي كِتَابِ اللهِ وَفِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَصْبَحَ مِنْ أَوْضَحِ الْوَاضِحَاتِ لَدَى عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَكُلُّ مَنْ قَرَأَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَكُلُّ مَنِ اطَّلَعَ إِلَى مَنْطُوقِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الْمَحَبَّةَ فِي اللهِ وَأَنَّ الْأُخُوَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ رَابِطَةٌ عَظِيمَةٌ وَأَصْلٌ كَبِيرٌ فِي شَرْعِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –.

فَلَا يُزَالُ هَذَا الْأَصْلُ بِأُمُورٍ تَخْمِينِيَّةٍ وَظُنُونٍ كَاذِبَةٍ فَاسِدَةٍ إِلَّا عِنْدَ مَنْ خَتَمَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – عَلَى قُلُوبِهِمْ وَطَبَعَ عَلَيْهَا، وَجَعَلَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً؛ فَلَا يَهْتَدُونَ بِهَدْيِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –؛ وَإِنَّمَا يَهْتَدُونَ بِوَحْيِ الشَّيْطَانِ – أَعَاذَنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَإِيَّاكُمْ مِنْ ذَلِكَ –.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، إِنَّ مَوْقِفَ الْمُسْلِمِ مِنَ الْأَخْطَاءِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا أَخُوهُ الْمُسْلِمُ بَيِّنٌ فِي كِتَابِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – بَيِّنٌ فِي سُنَّةِ الْمُصْطَفَى – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: فَإِنْ وَقَعَ الْمُسْلِمُ فِي مَعْصِيَةٍ فَسِتْرُهُ مَحْمُودٌ مَأْمُورٌ بِهِ عَلَى صِلَةِ الِاسْتِحْبَابِ وَالتَّأْكِيدِ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ هُمُ الَّذِي يَسْتُرُونَ، وَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الَّذِينَ

يَفْضَحُونَ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَرَحِمَهُ –: «إِنَّ الْفَاحِشَةَ لَتَسْرِي فِي النَّاسِ، حَتَّى إِذَا جَاءَتْ إِلَى الصَّالِحِينَ كَانُوا خُزَّانَهَا».

فَهَكَذَا كَانَ السَّلَفُ – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ –: يَسْتُرُونَ وَيَطْوُونَ مَا يُنْقَلُ عَنْ مُؤْمِنٍ مِمَّا يَشِينُهُ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –؛ وَذَلِكَ لِئَلَّا يَكُونَ الشَّيْطَانُ عَوْنًا عَلَى أَخِيكُمْ؛ فَيَتَفَرَّدَ بِهِ وَيَهِيمَ بِهِ فِي كُلِّ وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ الضَّلَالِ.

وَأَمَّا إِذَا وَقَعَ الْمُسْلِمُ فِي خَطَأٍ يَتَعَلَّقُ بِشَرْعِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –؛ فَإِنَّ رَدَّ هَذَا الْخَطَأِ مَأْمُورٌ بِهِ، وَلَكِنْ بِالطُّرُقِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – بِهَا؛ فَلَا يَكُونُ الرَّدُّ لِحَظِّ النَّفْسِ وَلَا لِلِانْتِصَارِ لَهَا؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ رَحْمَةً بِالْمَرْدُودِ عَلَيْهِ؛ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ، وَأَيْضًا يَكُونُ رَحْمَةً بِالنَّاسِ؛ لِئَلَّا يَلْتَبِسَ عَلَيْهِمُ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ؛ فَيَضِلُّوا.

فَهَذَا هُوَ مُرَادُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الرُّدُودِ، فَيُرَاعُونَ هَذَا الْمَقْصِدَ وَيَسْتَصْحِبُونَهُ فِي كُلِّ رَدٍّ يَقُومُونَ بِهِ.

أَمَّا أَنْ تَكُونَ الرُّدُودُ دَاعِيَةً إِلَى الْبَغْضَاءِ وَالتَّنَافُرِ وَالشَّحْنَاءِ، لَا تُثْمِرُ تَصْحِيحًا لِلْأَخْطَاءِ؛ وَإِنَّمَا تَزِيدُ فُرْقَةً وَشَتَاتًا – فَذَلِكَ مِمَّا لَا

يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْعِلْمِ، وَلَا يَرْضَاهُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

فَاتَّقُوا اللهَ – تَعَالَى – عِبَادَ اللهِ –، وَارْعَوْا هَذِهِ الْأُصُولَ الَّتِي سَارَ عَلَيْهَا سَلَفُكُمْ – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ –؛ فَكَانَ أَنْ حَقَّقُوا مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – وَنَشْرِ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُحَقِّقْهُ غَيْرُهُمْ، وَمَا لَمْ يَسْعَدْ بِهِ سِوَاهُمْ.

الْخُطْبَةُ التَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: وُجُوبُ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِوُلَاةِ الْأُمُورِ

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى أَمْرٌ مَرْفُوضٌ فِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ؛ فَلَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَاجْتِنَابُ الْهَوَى مِنْ أَعْظَمِ مَا يُمَيِّزُ الْمُسْلِمَ عَنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ هَوَاهُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [الْقَصَصِ: ٥٠].

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الصُّوَرِ الَّتِي تُبَيِّنُ اتِّبَاعَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ لِلْهَوَى: بَقَاءَهُمْ دُونَ وِلَايَةٍ تَنْتَظِمُ بِهَا مَصَالِحُهُمْ، وَتَسْتَقِرُّ بِهَا أَحْوَالُهُمْ،

فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُخَالِفًا لَهُمْ فِي هَذِهِ الظَّاهِرَةِ، مُحَذِّرًا أَشَدَّ التَّحْذِيرِ مِنَ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ.

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ – رَحِمَهُ اللهُ – فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ (مَسَائِلُ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي خَالَفَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِيهَا أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ):

«الْأُولَى: أَنَّهُمْ يُشْرِكُونَ بِاللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –؛ فَجَاءَ الرَّسُولُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –.

وَالثَّانِيَةُ: أَنَّهُمْ مُتَفَرِّقُونَ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، فَخَالَفَهُمْ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَجَاءَ بِالِاجْتِمَاعِ؛ ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشُّورَى: ١٣]».

قَالَ: «وَالثَّالِثَةُ: أَنَّ مُفَارَقَةَ وَلِيِّ الْأَمْرِ عِزٌّ وَشَرَفٌ، وَأَنَّ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ ذُلٌّ وَحَقَارَةٌ؛ فَخَالَفَهُمْ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي ذَلِكَ، وَأَمَرَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَحَثَّ عَلَى ذَلِكَ، وَأَبْدَى فِيهَا وَأَعَادَ».

قَالَ – رَحِمَهُ اللهُ –: «وَهَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ لَمْ يَقَعْ خَلَلٌ فِي دِينِ النَّاسِ وَلَا فِي دُنْيَاهُمْ إِلَّا بِسَبَبِ التَّفْرِيطِ فِيهَا أَوْ فِي بَعْضِهَا».

وَصَدَقَ – وَأَيْمُ اللهِ –؛ فَإِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ التَّارِيخَ وَنَظَرَ فِي أَحْوَالِ الْأُمَمِ؛ لَمْ يَجِدْ فَسَادًا لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا سِوَى هَذِهِ الْأَسْبَابِ الثَّلَاثَةِ، وَلِذَا؛ فَإِنَّ الشَّارِعَ الْحَكِيمَ أَمَرَ بِلُزُومِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَحَثَّ عَلَى ذَلِكَ، وَرَغَّبَ فِيهِ، وَشَدَّدَ تَشْدِيدًا كَبِيرًا فِي مُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ، حَتَّى رَتَّبَ عَلَى مُفَارِقِ الْجَمَاعَةِ عِقَابًا شَدِيدًا صَارِمًا.

فَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ وَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَتُوبَ؛ فَإِنَّهُ يَمُوتُ كَحَالِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَهَذَا أَعْظَمُ مَا يَكُونُ فِي الْوَصْفِ الْمَقِيتِ.

يَقُولُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ الَّذِي أَخْرَجَاهُ فِي (الصَّحِيحَيْنِ): «مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»، أَيْ: أَنَّهُ يَمُوتُ حِينَ يَمُوتُ كَحَالِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؛ يَرَوْنَ أَنَّ الْإِمَامَةَ ذُلٌّ، وَأَنَّ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ ذُلٌّ، وَأَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى هَذِهِ الْقُيُودِ فَخْرٌ وَاعْتِزَازٌ!!

وَمِنْ ذَلِكَ – أَيْضًا –: أَنَّ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ؛ فَلَيْسَ لَهُ حُجَّةٌ يَحْتَجُّ بِهَا عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَاسْمَعُوا هَذِهِ الْقِصَّةَ الَّتِي دَارَتْ بَيْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُطِيعٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – يَظْهَرْ لَكُمْ ذَلِكَ جَلِيًّا: لَمَّا خَرَجَ

عَبْدُ اللهِ بْنُ مُطِيعٍ عَلَى يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، جَاءَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، فَلَمَّا رَآهُ ابْنُ مُطِيعٍ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «اطْرَحُوا لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ وِسَادَةً»، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «لَمْ آتِكَ لِأَجْلِسَ؛ وَإِنَّمَا أَتَيْتُكَ لِأُحَدِّثَكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ: مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ؛ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ مُفَارِقَ الْجَمَاعَةِ لَا يُسْأَلُ عَنْهُ، وَلَا يُؤْبَهُ لَهُ؛ لِعَظِيمِ خَطِيئَتِهِ، وَكَبِيرِ جُرْمِهِ؛ فَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي (الْمُسْنَدِ) عَنْ فُضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ: رَجُلٌ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ، وَعَصَى إِمَامَهُ، وَمَاتَ عَاصِيًا».

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ؛ فَإِنَّهُ مَعَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَهُ؛ يَقُولُ عَرْفَجَةُ بْنُ شُرَيْحٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ: سَتَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ؛ فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ أَوْ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ

كَائِنًا مَنْ كَانَ؛ فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ يَرْتَكِضُ».

وَمِنْ ذَلِكَ – أَيْضًا –: أَنَّ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ دَمُهُ حَلَالٌ مَسْفُوحٌ؛ يَقُولُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ».

وَمِنْ ذَلِكَ – أَيْضًا –: أَنَّ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ؛ فَإِنَّهُ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِأَنْ يَنْطَبِقَ عَلَيْهِ وَصْفُ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ أَنَّهُ قَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ؛ فَفِي (الْمُسْنَدِ) عَنِ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: آمُرُكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَبِالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَبِالْهِجْرَةِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَإِنَّ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ؛ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ».

فَاعْرِفُوا – عِبَادَ اللهِ – هَذِهِ النُّصُوصَ النَّبَوِيَّةَ، وَتَأَمَّلُوهَا كَثِيرًا، وَاحْذَرُوا حَالَ أُولَئِكَ الَّذِينَ شَابَهُوا أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالَّذِينَ رَضُوا

أَنْ تَكُونَ مِيتَتُهُمْ كَمِيتَةِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

عِبَادَ اللهِ، فَاتَّقُوا اللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – حَقَّ التَّقْوَى، وَرَاقِبُوهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – فِيمَا وَلَّاكُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَرْبِيَةِ أَبْنَائِكُمْ، وَالْقِيَامِ عَلَيْهِمْ بِمَا يُصْلِحُهُمْ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَتَعَهَّدُوهُمْ فِي أَفْكَارِهِمْ وَفِي أَعْمَالِهِمْ؛ فَإِنَّ تَعَهُّدَهُمْ فِي ذَلِكَ يُحْمِدُكُمُ الْعَاقِبَةَ فِي دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَعْتَنِي بِالِاطِّلَاعِ عَلَى مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ فِكْرُ ابْنِهِ، وَلَا مَا يَحْمِلُهُ مِنْ مَبَادِئَ، وَهَذَا شَرٌّ وَخِيمٌ، يُورِثُ الْوَالِدَ الْهَلَكَةَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا كَمَا يُورِدُ الِابْنَ.

فَاتَّقُوا اللهَ – عِبَادَ اللهِ –، وَأَصْلِحُوا أَوْلَادَكُمْ، وَاعْتَنُوا بِفِكْرِهِمْ، وَرَبُّوهُمْ تَرْبِيَةً إِسْلَامِيَّةً، وَاجْعَلُوا كُتُبَ أَهْلِ الْعِلْمِ النَّاصِحِينَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، اجْعَلُوا كُتُبَ شَيْخِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ – رَحِمَهُ اللهُ – بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَاجْعَلُوا كُتُبَ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ – رَحِمَهُ اللهُ – بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَكَذَلِكَ كُتُبَ ابْنِ الْقَيِّمِ، وَابْنِ رَجَبٍ، وَسَائِرِ عُلَمَاءِ الدَّعْوَةِ – رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى –؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ وَأَمْثَالَهَا هِيَ الَّتِي تُنَوِّرُ الْأَفْكَارَ وَتَحْفَظُهَا – بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى وَبِإِذْنِهِ – مِنَ السُّقُوطِ فِي الْمَهَاوِي وَالْمَهَالِكِ.